المكتبة الثقافية
(جامعة حرة)
العدد ٢٧٠

دور مصر في تكوين الحضارة

تأليف: فؤاد محمد شبل

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

الإهـــداء

الى اسم قدسته الأديان وكرمته كتب السماء

انه سجل مفاخر الانسان ومرآة أمجاد البشر

وصرح الحضارة بأسمى معانيها

وانه التاريخ نفسه بجميع حقائقه

أجل ؛ الى مصر ... أم الدنيا

تقـــديم

انتقد السير ارنست باركر المؤرخ العالمى آرنولد توينبى لتخصيصـــه فى فهارس أجزاء موسوعته مساحة لانجلترا تبلغ سدس المساحة التى خصصها لمصر . ورد العلامة توينبى على النقد بالقول بأن المصادفة وحـــدها هى التى جعلت مساحة فهرس انجلترا سدس المساحة المخصصــــة لمصر من الفهـــارس . ولو كان أســـاس تخصيص الفهـــارس أهمية مصر وانجلترا الحقيقية فى الحضـــارة الانسانية ، لوجب ألا يتعدى نصيب انجلترا جزءا واحدا من ستين جزءا ولمصر التسعة والخمسون جزءا الباقية .

ذلك لأن مصر ـ كمـــا يقرر الأســـتاذ توينبى ـ قد ظلت محور التاريخ العالمى ثلاثة آلاف وخمســـمائة سنة من تاريخ العـــالم الحضارى البالغ خمسة آلاف سنة · أى أنهـا قد قامت بالدور الرئيسى على مسرح الحضارة العالمية بنسبة سبعين فى المائة من تلك الفترة ، ولم ينقطع دورها الحضارى خــلال العصرين المسيحى والاسلامى :

فانها هى التى منحت فكرة الرهبنة للعالم المســـيحى ، وهى التى صـــاغت اللاهوت المســـيحى · ولمــا أسلمت جمهرة المصريين الساحقة ، أصبحت قلعة العالم الاســـلامى ولولاها لامحت الحضارة الاسلامية من الوجود وتحطم كيان العالم الاسلامى بأسره : فانهـــا هى التى حمته من الصليبيين والتتار ، وهى التى صانت الثقافة الاسلامية ، وفى ربوعها ترعرعت وازدهرت ونمت · وما برحت مصر قلب الاســـلام وفكره ، وما انفكت أكثر دول العالم الاســـلامى اقبالا على الانتهال من معين الثقافة الغربية ، ولكن مع الحفاظ على ذاتيتها المميزة بفضل قدرتها العجيبة على استيعاب الثقافات الأجنبية وتمثيلها ·

والحق : ازدهرت الحضارة منذ سبعة آلاف سنة فى الجزء الأدنى من وادى النيل ، ولاتزال الأهرام تحمل منذ خمسة آلاف سنة الدليل الناطق على وجود منشئيها واعجازهم الفنى • وان الفنيين المعاصرين ليتوقعون بقاءها مئات آلاف أخرى من السنوات القادمة ، ولا يستبعد أن تظل قائمة بعد فناء الانسان نفسه • ويقرر المؤرخ الألمانى العظيم أدولف ارمان(١) ان دراسة المنجزات الحضارية المصرية تؤكد أن المصريين عنصر فنان فذ سبق العالم بأسره بابتكاراته الحضارية الرائعة ، وبينما كانت اليونان فى طفولتها ، كانت مصر منذ وقت طويل تقود العالم صوب المدنية ، وظل العالم أمدا طويلا يغترف من ينابيع حكمتها •

وتسلم جمهرة المؤخرين بأن مصر هى أول بلد فى العالم انبثقت منه الثورة الحضارية• ولم يتفوق على تأثيرات هذه الثورة على التقدم الانسانى ، الا ماحققته البشرية فى ابان المائتى سنة الأخيرة • بيد أنه لايخفى أن أعظم كشف حضارى حققه الانسان منذ أن استوى على

---

(١) صفحة ٢٤٠ وما بعدها من الجزء الاول
The Historian's History of the World

الأرض بشرا سويا قد تحقق فى مصر ، وأعنى به الزراعة ٠

ولقد صـــمدت مصر لتقلبـــات الزمن واستطاعت الحفـــاظ على أصـــالتها ، وان اضطرت مسايرة لسنة التطور أن تغير الثوب الذى ترتديه المرة بعد الأخرى ٠ بمعنى أنهـا قد استبدلت الاطار باطار آخر ٠ لكن بقيت الصورة ـ أى الجوهر ـ على ماهى عليـــه ٠ فان رسالة مصر الحضارية لم تنقطع فى أية مرحلة من مراحل تاريخها العريق ، واتصل دورها المرموق فى الحضـــارة الانسانية على الرغم من تقلبات الزمان وعوادى الدهر ٠ ففى هذا السجل الضخم الحافل من تاريخ بلادنا : يلتقى الحاضر بالماضى والحديث بالقديم ٠

وثمة ظاهرة فذة تنفرد بها مصر من بين بلاد العالم :

فان هنـــاك صراعا أزليـــا بين المصريين والصحراء ٠ فمنـــذ بداية تكوين الحضـــارة المصرية تتجه همة الدولة ـ حكومة وشعبا ـ الى درء خطر الصحراء عن البلاد ٠ ولهـــذا الخطر الرهيب جانبان :

الأول ـ مادى : يتمثل فى زحف الرمال على الأراضى الخصبة ، مما يقتضى الافادة من مياه النيل الى أبعد الحدود حرصا على خصوبة الأرض وحمايتها من أن تتحول الى بور ، أى الى صحراء .

الثانى ـ بشرى : يتجلى فى اغارات الأقوام البدوية على وادى النيل لسلب جهود الفلاحين وحصيلة عملهم المضنى وحطم السمو الحضارى المصرى وازالة الذاتية المصرية من الوجود . وتحفل سجلات تاريخنا بالحروب ضد البدو وقد نجحوا فى بعض الأوقات فى احتلال بلادنا . وأذكر من قبيل المثال احتلال الهكسوس لها فى التاريخ القديم وعدوان التتر فى التاريخ الوسيط ، وعدوان الاسرائيليين (نسل البدو العبرانيين) فى الوقت الحاضر .

وهذا الصراع العاتى بين المصريين والصحراء هو الذى قاد لانبعاث الحضارة وقيام أول حكومة وتأليف أول جيش نظامى فى التاريخ . واذا كانت الحكومة قد فرضت على جميع شعوب الأرض وأصبحت الحرية

تعنى التخلص من القيود الحكومية والتحلل قدر الامكان من ارتباطات الفرد بالمجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه ، فان الشعب المصرى ــ على النقيض ــ هو الذى تقبل الحكومة عن طواعية وسعادة اتقاء لغائلة الصحراء ٠

وسأتولى فى هذه الدراسة عرض دور مصر فى تكوين الحضارة مسترشـــدا بآراء جمهرة الباحثين فى الحضـــارة المصرية وفى مقدمتهم الأستاذ الكبير أرنولد توينبى ٠ وقد راعيت الايجاز الشديد وفاء بغـــاية المكتبة الثقافية ٠

وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد ٠٠٠

فؤاد محمد شبل

الفصل الأول

السمات الأساسية للحضارة المصرية

يعرف الكاتب الكبير د. ج. ولز الحضارة بأنها استيطان الناس منطقة على نحو متصل : يزرعونها ويتملكونها . ويعيش هؤلاء الناس معيشة متواصلة ، ويخضعون جميعا لادارة حكم مشترك ، ويعترفون بسيطرة مدينة (عاصمة) على جميع أنحاء هذه المنطقة .

وتأسيسا على هذا الرأى ؛ تكاد تجمع آراء المؤرخين على أن أول حضارة قد قامت على ضفاف النيل الأدنى ، وأنها سبقت بقليل قيامها فى بلاد ميزوبوتاميا (العراق الحالى) .

ولا يعرف أصل المصريين على وجه التحديد :

فمن قائل انهم وفدوا من أفريقيا الشرقية ٠

ومن قائل انهم انحدروا الى الوادى من الهضبة الليبية ٠

ومن قائل انهم جاءوا من آسيا الغربية ٠

ويقرر كثير من المؤرخين أن المصريين نتاج اختلاط تم بين عنصر هندى / أوربى وفد من البنجاب والهضبة الايرانية مع عنصر ليبى ، وآخر من أفريقيا الشرقية ٠

وتكونت فى بداية الأمر ألوف من القرى الصغيرة تستقل احداها عن الأخرى ، ويجمع سكانها بين حرفتى الصيد وزراعة الحبوب والخضر ، ولكل قرية زعيمها وآلهتها المحلية ٠ ثم تطورت أمور أولئك السكان فاقتصروا على الزراعة وحدها ٠ وعرفوا استخدام المعادن ، وتبادلوا عروض التجارة مع آسيا الغربية وأفريقيا الشرقية ٠

لكن تباينت معيشة سكان وادى النيل الأدنى ومصيرهم عن سكان بلاد العالم الأخرى التى كون سكانها قرى ومستعمرات ٠ وذلك لوجود عاملين أساسيين :

الأول ـ البحر شمالا وشرقا ، والصحراء غربا وجنوبا ٠ فكان ان أضفى ذلك على سكان الوادى الحماية،

فانصرفوا للنهوض بمستوياتهم المادية والمعنوية فى أمن وطمأنينة • واستطالت حضارتهم خلال فترة تقع بين عامى ٥٠٠٠ و ٣٥٠٠ قبل الميلاد •

الثانى – النيل – اذ دفع الناس للاستقرار فى أرض محددة بفضل توافر المياه ، كما ربط بين أجزاء واديه الأدنى • فأخذ سكانه يتنقلون فى يسر وسهولة بين القرى : يتبادلون الآراء والسلع ، ويندمج بعضهم مع بعضهم الآخر مما أرهص بوحدتهم فى أمة ودولة •

واقتضت حراسة جسور النيل وتوزيع مياهه وضرورة استتباب الأمن الداخلى وحماية البلاد من عدوان البدو أعداء الحضارة أن تتجمع القرى •• الى أن تكونت مملكتان : شمالية وجنوبية • وأغارت الشمالية على الجنوبية فتحققت وحدة البلاد للمرة الأولى حوالى عام ٤٢٤٠ قبل الميلاد • لكن لم يطل الأمر بالوحدة سوى بضعة قرون ثم انفرط عقدها وعادت المملكتان الى التنابذ ، الى أن تمكن الملك « نعرمر – مينا » عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد من تكوين مصر المتحدة •

وههنا يتبين صدق عبارة المؤرخ هيرودوتس « مصر هبة النيل » •

وان الباحث ليصاب بالذهول ، اذ تستبين له تلك المنجزات الحضارية التى حققتها مصر بالفعل قبل بداية

عهد الأسرات • اذ كان المصريون عند توحيد البلاد ـ للمرة الثانية عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ـ يحظون بمستوى حضارى رفيع • ويتضح هذا من مشاهدة قبور ملوك وأمراء الأسرة الأولى : فانها متسعة الأرجاء ، كشفت بها أوان حجرية جميلة للغاية وأدوات من النحــاس والبرونز ومجوهرات رائعة الصياغة • وكانت الكتــابة قد اخترعت بالفعــل فاستخدمت لتسجيل أسماء الأرباب والربات • وان عظمة هذه القبور لأبلغ شاهد على مدى نهضة العمارة وارتقـاء هندسة البناء •

ومن رأى العالم الكبير والتر ايمرى أن جميع عناصر التقدم الحضــارى الذى تبدى فى عصر بنــاة الأهرام (٢٧٨٠ ـ ٢١٠٠ قبل الميلاد) ـ ويعتبر قمة الحضــارة المصرية ـ كانت موجودة بالفعل فى ابــان الأسرة الأولى (٣٢٠٠ قبل الميلاد) • ولا يعرف المؤرخون سوى القليل عن عصر ماقبل الأسرات أى عن أجداد قدماء المصريين ، وان كشفت ثقافات ترجع الى عــــام ٤٠٠٠ ق•م بل الى ما قبل عام ٥٠٠٠ ق•م أو عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد • وتطلق أسماء شتى على هذه الثقافات وهى جذور الحضارة المصرية وينابيعها •

وحسبى القول أنه فى فترة تقع بين عــــامى ٦٠٠٠ و ٣٥٠٠ قبل الميلاد انبعثت فى وادى النيل الأدنى أمـة متحضرة كونت دولة • وتم ذلك فى وقت كانت فيـــه

أوروبا ومعظم آسيا الغربية لاتزال تسكنها جماعات مبعثرة من صيادى العصر الحجرى .

ومن الثابت أن مصر حظيت قبل عهد الأسرات بوقت طويل بقسط عظيم من الارتقاء الحضارى ، انبعث فى الدلتا فى بداية الأمر ثم انتشر منها الى بقية أنحاء البلاد . ويطالعنا من المنجزات الحضارية للتاريخ المصرى المبكر : علم الكتابة ، والمكاييل والموازين والمقاييس ، والهندسة المعمارية ، والنجارة والحدادة والصباغة ، والغزل والنسيج ، والمعرفة الحسابية ، واختراع التقويم ، والزراعة الموجهة ، والطب ، والكيمياء ...

وترجع تلك المنجزات الحضارية الرائعة وغيرها الى انبعاث صفوة من المفكرين تحرروا من العمل اليدوى الزراعى بفضل وفرة المحاصيل لسخاء النيل على الأرض بالماء والطمى ، فأصبحوا علماء العالم القديم وفنانيه . وبالتالى ؛ نشأت بمصر أول طبقة مثقفة (انتلجنسيا) .

واستطاع حكماء وادى النيل على مر السنين أن يتنبأوا بحركات النهر ، ولاحظوا اتفاق حدوث الفيضان مع بعض مظاهر النجوم . وفى حين تحجب الغيوم الشمس والقمر والنجوم فى البلاد الشمالية ، تتسم سماء مصر بالصفاء مما مكن علماءها من رصد النجوم والكواكب ودراسة تحركاتها . وقاد هذا المصريين للاهتداء عام ٤٢٣٦ قبل الميلاد الى أعظم كشوفهم العلمية : التقويم الشمسى الذى

استجلبه يوليوس قيصر الى روما ومنها انتشر فى جميع أنحاء العالم • لكن أدخل عليه الرومان بعض التغييرات فى الشهور فجعلوا بعضها يزيد فى عـــدد أيامه عن البعض الآخر ، بينما ساوى التقويم المصرى بين عدد أيام الشهور فجعلها ثلاثين يوما لكل شهر ، مع زيادة خمسة أيام فى نهاية السنة •

والى الصفوة المثقفة المصرية ـ وهى أولى مثيلاتها فى العالم كما قررنا ـ يرجع ابتكار نظام الرى الدقيق الذى مابرحت مصر تسير على نهجه ـ فى جوهره ـ حتى الآن • والى عبقريتها الفذة يرجع ابتكار نظـــام دقيق للموازين والمكاييل ، واستخدام نظام عشرى منذ عام ٣٢٠٠ قبـــل الميلاد لاحصاء المحاصيل وقطعان الماشية وقيـــاس الأراضى بعد الفيضان • وبفضل تقدم العلوم الرياضية أمكن بناء الأهرام والمعابد والمقابر : تقدم يرجع الى دورة النيل والى صفاء سماء مصر •

واذا كان التقويم الشـــــمسى أعظم كشـــوف مصر الحضارية ـ بعد الزراعة ـ فان الكتابة أعظم مخترعاتها : فانه عندما تمكن المصريون من تبادل المعلومات ثم الآراء عن طريق الكلمة المكتوبة ، قفزت البشرية خطوة جبارة فى طريق التقدم الحضارى لانجد لها نظـــيرا الا فى اختراع وسائط الاتصال اللاسلكى • والحق : ظل العـــالم طوال مئات الآلاف من السنين يستخدم الصوت وسيلة وحيدة

للتنقيف الى أن قدمت العبقرية المصرية منذ ستة آلاف سنة الكتابة فتصبح أداة التثقيف وتنفتح أمام البشرية أبواب المعارف على مصاريعها ، ويتبادل العـــالم الآراء فى يسر وسهولة ويتم تسجيلها للأجيال القادمة للافادة من ثمـــار قرائح المفكرين على اختلاف عناصرهم وأجناسهم • ولقـــد ورثت أوروبا حروفها الهجـــائية الســـتة والعشرين عن الرومان الذين ورثوها عن الفينيقيين الذين أخذوا حروفهم عن المصريين بعد تعديل الحروف الهجائية المصرية بمـــا يوائم احتياجاتهم ـ أى الفينيقيين ـ التجـــارية • ولقـد استقى المصريون الكتابة من بيئتهم وحـدها مما يدل على أنهم لم يأخذوا الكتابة عن شعب آخر •

وفى غضون فترة خمسمائة سنة تقريبا ، تقع بين تولى مينا عرش مصر وتولية خوفو ثانى ملوك الأسرة الرابعة ، حقق المصريون تقدما تكنولوجيا رائعـــا لانجد له نظيرا الا فيما أنجزته البشرية خـــلال المائتى ســنة الأخيرة • اذ استطاع المصريون خلال حـكم الملك خوفو اقامة الهرم الأعظم الذى ظل قرابة خمسة آلاف سنة ـ أى حتى أوائل القرن التاسع عشر ـ أعلى بناء على سطح الأرض • ويتكون هذا الهرم من مليونين ونصف المليون حجر ويواجه كل ضلع جهة من الجهات الأصلية الأربع فى دقة بالغـــة ويعتبر بناؤه قمة الحضارة المصرية ، فانه شاهد صـــدق على مدى توفيق الادارة المصرية فى تعبئة كفايات البـــلاد

الفنية والاقتصادية والادارية لانجاز هذا المشروع الرائع ·
وسبق بناء هرم خوفو أهرامات أخرى كان أولهـــا هرم
زوسر المدرج مؤسس الأسرة الثالثة · ويعتبر هذا الهرم
أول بناء حجرى فى العالم ، وقد نال مهندسه ـ ايمحتب ـ
شهرة عريضة فألهه المصريون واليونانيون القدماء ، وكان
متعدد الكفايات حتى يلقبه المؤرخون الأوربيون المحـدثون
ب « ليوناردو دافنشى » مصر القديمة ·

ومهما يكن من أمر ما أجدته الحضـــارة المصرية على
البشرية من منجزات مادية لاتزال تنعم بثمراتهـا حتى
الآن ؛ فان منجزاتها الروحية لأعظم من ذلك · ألم يبزغ
فجر الضمير فى مصر ؟

ولقد اصطلحت جمهرة المؤرخين على تقسيم التـــاريخ
الى عصور مادية الطابع : العصر الحجرى ، عصر البرونز ،
عصر الحديد ، عصر الآلات ، عصر الذرة · بيد أن آخرين
يرون أن العامل الروحى لايقل أهمية عن المادى ، ان لم
يفقه · وهذا مادعا المؤرخ العـــالمى توينبى الى تفســـير
الأحداث التاريخية تفسيرا استخدم فيه العـــاملين المادى
والروحانى على السواء ·

والمنجزات الحضارية المادية أقدم عهدا بكثير جـــدا
من تطور البشرية الروحانى · اذ ترجع أولى آلات الانسان
المـــادية الى أبعد من مليون سنة ، بينما لا يجـــاوز عمر

منجزاته الروحية الخمســـة الآلاف سنة ، وقد انبثقت فى وادى النيل الأدنى ·

وتستمتع مصر بعزلة فريدة جعلت منها جزيرة وسط بحر من الرمال ، فأمكن سكانها تطوير حياتهم المـــادية والروحية ، والارتقـــاء بهمـــا على الرغم مما جابهته من اعتداءات البدو ومن اليهم من العناصر الهمجية أو الأقل تحضرا ·

وليست هناك قوة أثرت فى مناحى نشاط الانســان القديم مثلما أثرت فيها عقيدته الدينية · فانها قد أثرت فى اتجاهاته الفكرية والفنية ، وكان لهـــا تأثير عارم فى تطوير الفنون والآداب والعـلوم · ولقـــد مرت العقيدة الدينية بمراحل تطورت فى خلالهـــا الى أن أصبحت على ماهى عليه ، ولم تكن للديانة علاقة بالأخلاقيات مثلمـــا نشاهد فى الوقت الحاضر ·

ولقد قدس المصرى البدائى كائنات أحس أنهـــا تتفوق عليـــه مثل الطيور والزواحف · كـــذلك قدس الحيوانات النافعة · أقصد أن المظاهر الطبيعية كان لهـا التأثير الحاسم فى سلوكه : فكانت آلهته الأولى تلك القوة المسيطرة فى العالم المادى ، ولم يدرك المجـــال السياسى أو الاجتماعى أو الروحى للاله ، وظلت فكرة الخير والشر والخطأ والصواب بعيدة عن ذهنه ·

ولما تحققت وحدة البلاد الأولى حوالى عام ٤٢٤٠ قبل الميلاد (على أرجح الأقوال) ، انبعثت الدولة المركزية وأصبح لها سلطان ملموس على عقول الناس ، وسيطرت على تصرفاتهم ومتجهاتهم • وتجسدت هذه القوة فى ذاتية الملك الذى غدا الها ذا أهمية بالغة فى حيـــاة الناس •

فالتطور السياسى قد أثر تأثيرا ضخما فى تطور البلاد الدينى ، كذلك تأثر الدين بالتطور الاجتماعى •

وتفسير ذلك أن ترابط أعضـاء الأسرة تحت تأثير الاستقرار الذى فرضه النشاط الزراعى ، قاد الى شيوع التعاطف بين أفراد الأسرة الذين باتوا يتجمعـون حول الوالد والوالدة • فلابدع أن يتجه الذهن المصرى لأن يجعل من آلهته عائلات تضم الأب والابن والأبناء ، وبخاصة أنه يلمس تلك المحبة وهذا الترابط الوثيق والتعاطف الأكيد بين النيل والأرض والنبات •

وفى ظل اتحاد البلاد الثقافى حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميـلاد ، انبعثت فكرة الحكم عن طريق القسـط (أى العدالة والحق = معات المصرية) وأصبحت دعامة الحكم المصرى وعماده حتى الآن • ولو انحرف عنها الحاكم (سواء أكان رئيس البلاد الأعلى أم حاكم اقليم أم مدينة أم قرية ، أم رئيس جماعة — أى جماعة — أم رب عائلة) انصرف عنه ولاء المحكومين والمرءوسين ولم ينل منهم سـوى الحقـد والكراهية وتربصوا به الدوائر •

والحق ؛ لم يحدث أن ازدهرت أمور بلادنا وتحقق لها الأمن وشاع فى ربوعهـا الرخـاء ، الا فى ظل كفالة أمرين :

الأول ـ الحفاظ على ذاتية بلادنا وشخصيتها المميزة .

الثانى ـ التزام الحاكمين قواعد العدالة والانصاف والمحبة فى علاقاتهم بالمحكومين .

ويطالعنا فى هذا المجال أنه لما تداعى النظام الذى فرضه بناة الأهرام تحت ثقل الأعباء التى تحملها المجتمع المصرى ، عجز عن صد غائلة البدو فتقوضت دعائم الحكم الصالح واستبيحت أركان العدالة . فكـان أن انبعثت طائفة من المفكرين الاجتماعيين ألمعوا الى الفسـاد الذى يسود البلاد ، لكنهم لم يفقدوا الأمل فى ظهور « مخلص » ينقذ البلاد من الفساد الذى تردى فيه الحكم .

وبالأحرى ؛ ظهرت فى كتابات الحكماء المصريين أولى بوادر عقيدة المخلص (العقيدة المسيانية) ومدارها الايمان بظهور شخصـية قدسـية على الأرض تعيد الى الأرض السلام وتقر العدالة بعد أن ملئت جورا وفسادا وفقرا . ولعل دورة النيل مرجع هذه العقيدة : لأنه يعود بعد امحال ويؤوب جالبا معه الخيرات والبركات بعد جوع وعطش . وهذه العقيدة المسيانية آمن بها اليهود بعد ذلك وما برحت محور تاريخهم وأسـاس عقيدتهم الدينية ومؤداها ظهور

مخلص يمكنهم من اخضاع العالم لسيطرتهم . وهذا عكس رأى المفكرين المصريين الذين رنوا الى كفالة العدالة الاجتماعية للشعب بأسره ، وأن تنهض بأعباء الحكم حكومة رحيمة على رأسها حاكم مصرى يكون للمصريين والدا قبل أى شيء آخر .

فاذا كانت وحدة مصر السياسية قد أبرزت الى ميدان التاريخ المصرى الملك الحاكم القوى الذى لامعقب لحكمه ، فلقد انبعث فى المجتمع المصرى عصر يبدأ قبل عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد تجلت فيه شخصية الملك العادل . كما برزت بالمثل فكرة اله يقيم القسط بين عباده ولا يبطش بهم وفق نزواته ، على غرار ماتنبئنا التوراة عن أفعال « يهوه » اله اليهود بهم .

ولقد اتسمت فترة القرن السادس عشر قبل الميلاد وما بعدها بامتداد نفوذ العالم المصرى ، وتلا ذلك تضخم الأفق السياسى واتساع نطاق الفكر الدينى . وتابع التطور الفكرى مجراه الى أن بلغ ذروته بعد عام ١٤٠٠ قبل الميلاد بانبعاث أول مذهب للوحدانية الالهية عرفه التاريخ . وأظهرت الفترة ١٣٠٠ ـ ١٠٠٠ قبل الميلاد كثيرين من الحكماء الذين أثروا فى الفكر الدينى اليهودى تأثيرا عارما .

وبالأحرى ؛ كانت مصر طوال ثلاثة آلاف سنة (من عام ٤٠٠٠ ـ ١٠٠٠ قبل الميلاد) بمثابة مشتل ترعرعت

فيه القيم الروحية والفكرية التى تسامت بالبشرية ، ولولاها لتجمد الفكر البشرى وأصبح الطعام شغل الانسان الشاغل • فالمصريون قد اقتبسوا المثل العليا من الطبيعة المادية ، ووفقوا على مر الأحقاب الى احالة المظاهر المادية الى معنويات والى قيم تجريدية •

وتتبلور المظاهر المادية فى الطبيعة المصرية فى ظاهرتين أساسيتين :

الأولى : الشمس ـ أى الاله رع •

الثانية : النيل ـ ويتمثل فى أوزير رب الخضرة • ولايزال كامنا فى أعماق النفسية المصرية حتى الآن ، ويستخدم عامة المصريين اسم « سيدنا الخضر » للدلالة عليه •

وسنفصل فى الأبواب التالية ما أجملناه فى هذه العجالة •

الفصل الثانى :

تكوين الحضارة المصرية

ليست البيئة فى رأى العلامة آرنولد توينبى هى العامل الايجابى فى قيام الحضارات ، وان كانت بلا ريب عاملا عظيم الخطر فى التشكيل الثقافى . اذ لايزال هناك عامل لايمكن تحديده : سيكلوجى فى طبيعته ، وهو أهم عوامل انبعاث الحضارات وأشدها ارتبـــاطا بالقضـــاء والقدر . واستخلص الأستاذ توينبى من دراســـته فكرة مؤداها أن الانسان قد حقق الحضارة : لا نتيجة لمواهب بيولوجية ، ولكنه حققها استجـــابة لتحدى موقف ذى صعوبة خاصة استثار الانسان لبذل جهد ما ، لم يبذله من قبل . وكان انبعاث الحضارة المصرية وتكوينها أوضـــح مثال ساقه تأييدا لرأيه :

فبينما كان الثلج يغطى أوروبا الشمالية حتى جبال الهازر (١) وكانت الثلوج تتوج جبال الألب والبرانس ؛ عمل الضغط العالى للقطب الشمالى على احالة الزوابع المطرية تجاه الجنوب ، وكانت الأعاصير التى تخترق أوروبا الوسطى تمر فى ذلك الوقت فوق حوض البحر الأبيض المتوسط وشمال الصحراء الكبرى وتسقط فى طريقها دون أن تعتصرها جبال لبنان مارة عبر العراق وبلاد العرب الى فارس والهند . فكانت الصحراء الجدباء تنعم - فى ذلك العهد - بهطول الأمطار بانتظام ، وكانت الأمطار فى المنطقة الأبعد من ذلك شرقا أعظم غزارة مما هى عليه الآن ، بل وموزعة على مدار السنة كلها ولا يقتصر سقوطها على فترة الشتاء كما هو الحال فى الوقت الحاضر . وتبعا لذلك يتوقع ازدهار الحدائق والأحراش فى شمال أفريقيا وبلاد العرب وفارس ووادى السند على غرار ازدهارها اليوم فى شمال البحر الأبيض المتوسط .
وبينما كان الماموث والخرتيت المسعر والرنة ترعى فى فرنسا وجنوب انجلترا ، كانت تعيش فى شمال أفريقيا حيوانات توجد اليوم فى منطقة الزمبيزى بروديسيا .
وكان من الطبيعى أن تكون المراعى البهيجة فى شمال

---

(١) أقصى سلاسل جبال ألمانيا الغربية وتمتد بين نهرى ويزر والالب وتبلغ مساحتها حوالى ٧٨٤ ميلا مربعا . ولقد خلدها الشاعر العظيم جوته فى قصته « فاوست » .

أفريقيا وجنوب آسيا كثيفة السكان مثل سهول أوروبـــا الحالية • وبديهى أن يحرز الانســان فى ظل هذه البيئة المواتية تقدما أعظم مما يحرزه زميله المحصور بين الثلوج• بيد أن المنطقة الأفراسية (أى الأفريقية الأسيوية) قد أخذت عقب نهاية العصر الجليدى ، تكابد تغيرا فى أحوالها الطبيعية مبناه اتجاهها نحو الجفاف • وازاء الجفـــاف التدريجى الذى ترتب على تحول الأمطار صوب الشـــمال (وذلك كلما تقلصت جبال أوروبا الثلجية) أصبح على سكان الهضبة الليبية الصيادين الذين تأثروا بهذا التغيير أن يختاروا أحد أمور ثلاثة :

الأول ــ التحرك نحو الشمال ــ أو الجنوب ــ مع صيدهم متتبعين المنطقة المناخية التى ألفوها •

الثانى ــ البقاء فى أماكنهم الأصلية التى تحولت الى أراض جدباء • ويعنى هذا أن يعيشوا حياة تعسة مكتفين بما يصيدونه من الحيوانات التى تقاوم الجفاف •

الثالث ــ البقـــاء فى مواطنهم والعيش عن طريق استئناس الحيوانات •

أما أولئك الذين عزفوا عن تغيير مواطنهم بتعـــديل طريقة معيشتهم وبتحويل أنفسهم من صيادين الى رعاة ، فقد أصبحوا بدو الصحراء الأفريقية •

وأما أولئك الذين آثروا تغيير مواطنهم على تعديل

طريقة معيشتهم (أى تلك الجماعات التى تجنبت الجدب باتباع منطقة الأعاصير فى تحولها شمالا) مغرضين أنفسهم عن غير قصد الى تحد جديد : أى تحدى البرد الموسمى الشمالى الذى لم تستسلم له تلك الجماعات ؛ فقد أثارت فيهم بيئتهم الجديدة استجابة خلاقة جديدة ٠

بينما وقعت الجماعات التى تجنبت الجدب (وذلك بالارتداد جنوبا الى منطقة الرياح الموسمية) تحت التأثير المنوم للمناخ المدارى الذى لايتغير ٠

وأخيرا ؛ ثمة جماعات استجابت لتحدى جفاف مواطنها الأصلية بتغيير مواطنها وطريقة معيشتها معا ٠ وكان رد الفعل هذا المضاعف النادر هو العمل ذا الطاقة الدافقة الذى خلق الحضارة المصرية بين ظهرانى المجتمعات البدائية التى كانت تعيش فى المراعى الأفريقية السائرة فى طريق الزوال ، تحت تأثير الجفاف الذى ترتب عن تحول مجرى الرياح ، كما مر بنا ٠

ولقد تمثل التغير فى طريقة معيشة الجماعات الخلاقة فى تحولها الشامل : من جامعى طعام وصيادين ، الى زراع٠ ولم يكن التغير من ناحية المسافة كبيرا ، اذ انحدر الصيادون — السابقون — من الهضبة الليبية الى وادى النيل ؛ لكن التغير كان هائلا ان قارنا الاختلافات الطبيعية بين المراعى التى هجرها أولئك الصيادون لجفافها وبين بيئتهم النهرية الجديدة التى استقروا فيها ٠

وكان وادى النيل الأدنى عند استقرار الرواد أجداد المصريين الأبعـــدين يختلف اختلافا تاما عنــه فى الوقت الحاضر • اذ كان المطر يسقط عليه بغزارة وكانت الدلتا (مستنقعا) يفيض بالمياه • ويحتمل أن النيل الأدنى فى جزئه الواقع فوق الدلتا كان يشابه بلاد النيل الأعلى عند بحر الجبل فى المديرية الاستوائية بالسودان ، وان الدلتا نفسها كانت تشابه المنطقة التى حول بحيرة نو حيث تمتزج مياه بحر الجبل بمياه بحر الغزال • ولكن بينما استطاع رواد الحضارة المصرية أن يخضعوا الطبيعة الفضفاضـــة للارادة البشرية فاختفت بفضل جهودهم مستنقعات الأدغال وحلت محلهـــا مجموعة منســـقة من القنوات والمدرجات والحقول وذلك بفضل استجابتهم لتحدى البيئة •

فان أسلاف قبائل الدنكا والشلوك والنوير الحاليين قد افترقوا وقتذاك عن جيرانهم الشماليين رواد الحضارة المصرية ، وذلك باتباعهم أقل السبل وعورة • اذ استقروا فى السودان المدارى فى نطاق منطقة الأمطار الاستوائية • ولا تزال سلالاتهم تعيش هناك الى وقتنا هذا نفس معيشة أسلافهم الأبعدين •

اذ لاشك فى أن تلك القبـــائل النيلية ـ وأصلهـــا يرجع الى الهضـــبة الليبية كمـــا يقــرر توينبى ـ تتصل بالمصريين القــدماء من حيث المظهر والقــد ونسب الجمجمة واللغة ، وتنتظم فى شـــعائر طوطمية • ويبـــدو كمـــا لو أن التطور الاجتماعى بين هذه القبائل المقيمة على ضفاف

أعالى النيل قد توقف عند المرحلة التى عبرها المصريون قبل أن يبدأ تاريخهم ·

ويختلف المؤرخون فى أصل المصريين وفى منشأ الجنس المصرى · فمن قائل انهم من عنصر هندى ـ أوربى مستدلا على ذلك بتماثل مقاييس جمجمة المصرى والهندى البنجابى · ويميل الأستاذ ماسبيرو الى اعتبار أفريقيا موطن الجنس المصرى · ويؤكد الأستاذ سيرجى أن الجنس الأثيوبى وموطنه أعالى النيل هو أصل جنس البحر الأبيض المتوسط بأسره ومنه الفرع المصرى وأنه انتشر شمالا واستولى على جنوب أوروبا وغرب آسيا · ويعتقد الأستاذ فلندرزبترى بالأصل المشترك للمصريين والفينيقيين ·

أما الأستاذ توينبى(١) فانه وان جعل من الاستجابة لتحد مادى أو معنوى أساس قيام الحضارات ، فانه لا يغفل أهمية الجنس فى التكوين الحضارى · ومن رأيه أن انبعاث الحضارات يتطلب مساهمة أكثر من عنصر مساهمة تتسم بالابداع · ويعتبر هذا الرأى قانونا يستدل على صحته بتكوين مصر الحضارى · فان ثقافة البدارى التى بدأت خلال القرن الستين قبل الميلاد قد أقامها جنس أبيض من أجناس البحر الأبيض المتوسط لكن لاتخلو دماؤه من تأثير زنجى ، وورثت ثقافة البدارى ثقافة أخرى لجنس

(١) صفحة ٢٤١ من الجزء الاول من موسوعة «دراسة للتاريخ» للاستاذ توينبى ·

أشد التصاقا بجنس الأبيض المتوسط ويتسم بتأثره بجنوب غربى آسيا : تأثرا يظهر خاصة فى الفن والعقيدة الدينية . ويخلص الأستاذ توينبى من بحثه للقول بأن ثمة أربعة عناصر على الأقل هى التى تكون منها الجنس المصرى الذى أبدع هذه الحضارة الخالدة :

الأول ـ عنصر أبيض متوسط يعتبر عنصر البلاد الأصيل .

الثانى ـ عنصر زنجانى(١) وفد الى البلاد من الجنوب .

الثالث ـ عنصر أبيض متوسط وفد من الشمال الغربى (أى من الصحراء الليبية) .

الرابع ـ عنصر قوقازى وفد من الشمال الشرقى (أى من الهضبة الايرانية) .

ومهما يكن من أمر منشأ الجنس المصرى وتركيبه العنصرى ؛ فلا شبهة فى أن بيئة مصر ومناخها قد فرضا على سكانها نمطا من الحياة وأسلوبا من المعيشة لم يتغير منذ بداية تكوين الحضارة المصرية حتى الآن . فكان أن انصهرت جميع العناصر والأجناس فى بوتقة البيئة المصرية المميزة .

ومن المؤكد أنه وان غير المصريون لغتهم مرة

---

(١) زنجانى : شبيه بالزنجى .

وعقيدتهم الدينية مرنين ؛ فلا يختلف المصرى الحالى من الناحية العنصرية عن أجداده القريبين والأبعدين فى قليل أو كثير للأسباب التالية أساسا :

أولا ـ تعتبر مصر جزيرة تحميها مياه البحر شمالا والصحراء غربا وجنوبا • أعنى كان عدد الوافدين اليها سواء بالهجرة أو الغزو محدودا للغاية بالقياس الى عدد السكان • وحسبى القول ان جنود الفتح العربى نفسه لم يجاوزوا الستة الآلاف بينما تراوح عدد السكان بين عشرة ملايين واثنى عشر مليونا •

ثانيا ـ مابرحت الزراعة مصدر العيش الأساسى • ومن ثم لامناص للوافد من أن يحترف الزراعة ، فيذوب فى المجتمع المصرى على طول المدى •

ثالثا ـ كان المصريون أعلى ثقافة بما لا يقاس من جميع غزاتهم والوافدين عليهم ، وبالتالى خضعوا لمفهوم مصر الحضارى ومنحاها التفكيرى •

رابعا ـ كان المصريون يأنفون من الاختلاط بالأجانب لأنهم ـ أى المصريون يختلفون عن سواهم من أجناس العالم : يحرمون أكل الخنزير ، كما يمارسون عادة الختان •

ويقرر الأستاذ توينبى أن دراسة المجتمع المصرى القديم تفصح عن حقيقة مؤداها أن ربع فترة حياته ـ ويقدرها بأربعة آلاف سنة ـ يعتبر فترة نماء • وفى بداية

الامر تجلت القوة الدافعة فى السيطرة على بيئة طبيعية على جانب هائل من الصعوبة : فأمكن تطهير مستنقعات الغاب وصرف مائها تم زراعتها ، وهى التى كانت تشغل أصلا الوادى الأدنى ومنطقة الدلتا وكانت تصد الانسان عن زراعتها زراعة مثمرة .

ثم ظهرت طاقة هذه القوة الدافعة المطردة فى التوحيد السياسى المبكر للعالم المصرى فى نهاية عصر يعرف بعصر ماقبل الأسرات ، وبلغت أوجها فيما أنجزته الأسرة الرابعة من الأعمال المذهلة . ويعتبر عصر الأسرتين الرابعة والخامسة ذروة ماحققه المجتمع المصرى من مآثر لا يشاركه فيها غيره مثل تنسيق العمل البشرى فى المشروعات الهندسية الكبيرة التى تتسلسل من استصلاح المستنقعات الى تشييد الأهرامات . كذلك يمثل هذا العصر الذروة فى الادارة السياسية وفى الفن بل وفى محيط الدين نفسه حيث تتولد الحكمة من الألم ووخز الضمير . فان مايدعى نصوص الأهرام يشهد بأن هذا العصر قد رأى أيضا منشأ حركتين دينيتين : عبادة الشمس وعبادة أوزيريس واصطدامهما ، والمرحلة الأولى فى التفاعل بينهما . وهما العبادتان اللتان بلغتا نضوجهما .

ثم كان أن انقضت الذروة وبدأت مرحلة الانحلال فى فترة الانتقال بين الأسرتين الخامسة والسادسة (٢٤٢٤ قبل الميلاد) . وههنا يبدأ تعرفنا على الأعراض المألوفة : فان تفتت المملكة المصرية الموحدة الى عدد من

دويلات صغيرة فى حرب متصلة بينها ، يحمل الطابع الذى لايخطىء الخاص بعصور الاضطرابات ؛ ولقد تلت عصر الاضطرابات المصرى ـ حوالى ٢٠٧٠ قبل الميلاد ـ دولة عالمية أنشأتها العائلة المالكة المحلية فى طيبة وعززتها الأسرة الثانية عشرة حوالى ٢٠٠٠ ـ ١٧٨٨ قبل الميلاد ٠ ودالت الدولة العالمية بعد الأسرة الثانية عشرة وغزا الهكسوس مصر ٠ لكنها استطاعت ردهم واستعيدت الدولة العالمية المصرية وعاصمتها طيبة ٠ وتعتبر هذه الاستعادة الحدث الوحيد ذا المغزى فى التاريخ المصرى ، باستثناء ثورة أخناتون ٠

واذا ما انتقلنا الى دراسة التاريخ الدينى المصرى ، وللعقيدة الدينية أهمية قصوى فى تكوين المجتمع المصرى وتطوره الحضارى ، ألفينا نزعتين متنافستين :

الأول ـ ديانة أوزيريس وقد وفدت من الدلتا ٠ وأوزيريس هو اله ذو طبيعة أرضية وما تحت الثرى ٠ أى أنه يمثل روح الانبات التى تظهر فوق الأرض وتختفى تحتها على التعاقب ٠

الثانى ـ الشمس ـ اله السماء ٠

ولقد ارتبط هذا الصراع اللاهوتى بالنزاع السياسى والاجتماعى بين قسمين من المجتمع الذى انبعثت فيه العبادة

بل ولم يكن هذا النزاع فى الواقع الا تعبيرا لاهوتيا عنه. وكان كهنة أون (هليوبوليس) مسيطرين على اله الشمس (رع) وكانوا يصورونه بصورة الفرعون • على حين كانت عبادة أوزيريس ديانة شعبية •

فكان النزاع الدينى ـ من ثم ـ نزاعا بين دين رسمى للدولة وديانة شعبية تجتذب الانســـان المؤمن • وأهم فارق بين الديانتين ـ فى شكليهما الأصليين ـ هو الفارق بين المصير بعد الموت اللذين وعدا بهـــا عبادهما • فمن ناحية ، كان أوزيريس يحكم جماهير الموتى فى عالم الأشباح تحت الأرض • أما رع فكان على استعداد لأن يفتدى أتباعه من الموت ويرفعهم أحياء الى السماء • لكن هذا البعث كان قاصرا على القادرين على دفع الثمن • وكان فى ارتفاع متصل، حتى لقد أصبح الخلود الشمسى فى الواقع احتكارا للفرعون وأولئك الأفراد من أعضاء بلاطه الذين يسهم هو باختياره فى معدات خلودهم • وما الأهرامات الكبرى الا نصـــب هذا المســـعى لكفالة الخلود الشخصى عن طريق الافراط فى البناء • وكانت ديانة أوزيريس فى هذه الأثناء تزدهر ؛ فانه رغما عن ضآلة الخلود الذى تعد به عبادها ـ ان قورن بالاقامة فى سماء رع العليا ـ الا أنه كان العزاء الوحيـد الذى فى مكنة الجماهير التطلع اليه •

فكان المجتمع المصرى ـ والحالة هذه ـ ينقسم الى اقلية مســـيطرة ، وجماهير حاشدة • ولقـــد أدرك كهنة أون

(هليوبوليس) هذا الخطر فحاولوا جب تأثير أوزيريس عن طريق اشراكه مع رع • لكن أوزيريس استحوذ لجماهير البشر على الطقوس الشمسية للخلود الالهى •

وأهم أثر لهـــذا التوفيق الدينـــى بين العقيدتين يتمثل فى « كتـــاب الموتى » وهو مرشـــد كل فرد الى الخلود الذى اتجهت اليه نفوس جميـــع أفراد المجتمـــع المصرى ، وقد ســـاد هذا الكتـــاب حيـــاة المجتمع المصرى الدينية طوال مدة نهايته التى دامت ألفى سنة ، وسيطرت عليه فكرة أن رع ينشد العدالة أكثر من رغبته فى الأهرامات ،وبدأ أوزيريس كقاض فى العالم الســفلى يرسل الموتى الى المصائر التى تستحقها حياتهم على الارض •

ولقد ابتكر الملك اخناتون معنى جديدا للاله والانسان والحياة والطبيعة وعبر عنه فى فن وشعر جديدين • وسعى من وراء ابتكاره هذا الى أن يكرر ـ دفعة واحدة ـ الابتداع الدينى الذى قامت به دون جدوى الديانة الأوزيريسية : وهى ديانة الشعب •

واذا كان التطور الدينى قد تم أساسا فى شـــمال البلاد فان الجـــنوب (وأعنى جنوب مصر العليا) قد أبرز على مدار تاريخ الحضارة المصرية ، قوة وجهت خط سيره فى مناسبات ثلاث على الأقل :

الأولى : توحيد البلاد ـ للمرة الثانية ـ حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد •

الثانية : اقامة الدولة العـالمية خلال أعوام ٢٠٧٠ ـ ٢٠٦٠ قبل الميلاد ٠

الثالثة : طرد الغـزاة البـدو الهكسوس واسـتعادة الدولة العالمية حولى عام ١٥٨٠ قبل الميلاد ٠

وفى الواقع ، تعتبر هذه المقاطعة من العـــالم المصرى «منشئلا» للامبراطوريات المصرية ٠ وهى الحد الجـــنوبى للعالم المصرى الذى كان معرضا لضغط بلاد النوبة ٠ على أن القوة السياسية قد انكفأت الى الدلتا خلال الجزء الأخير للتــــاريخ المصرى ، أى الستة عشر قرنا منـــذ انهـــيار الامبراطورية الحديثة وتضعضع المجتمع المصرى فى صورته التقليدية فى ابان القرن الخامس بعد الميلاد ، مثلما دأبت على الانكفاء الى الحد الجنوبى خلال الألفى سنة السابقة ٠

وسنفصل ما أجملناه فيما بعد ٠

الفصل الثالث

خصائص التفكير الديني في مصر القديمة

تعدد الآلهة وتمثيلها فى أجساد آدمية ورؤوس حيوانات أو طيور ، أعظم ما يحير الباحث فى شئون الحضارة المصرية عامة وعقيدة قدماء المصريين الدينية خاصة · ويدفعه هذا للتساؤل عما يقود شعبا بلغ ذروة التفكير الحضارى ، للايمان بهذه الأنواع من الأرباب والاستمساك بها آلاف السنين ·

بيد أنه لا يخفى أن المصريين قد وجدوا فى عقيدتهم الدينية القومية العزاء الروحى الذى طالما افتقدوه فى إبان

المحن التى ألمت ببلادهم • بل لقد جعلوا من هذه العقيدة أيدولوجية تبث فيهم طاقة دافعة للحفاظ على الأصـــالة والذاتية القوميتين •

وثمـة حقيقة لا تمـــارى مبنـــاها أن العقيـــدة الدينية المصرية لم تكن جامدة قط ، اذ تأثرت بالأحـوال الاجتماعية وديدنها التغير ، وكانت العقيـــدة الدينية فى تطور مستمر • ولا يخفى أن مصر القديمة تألفت ــ قبـل تحقيق الوحدة ــ من عدد كبير من الدويلات تستقل احداها عن الأخرى ، ولكل رئيس ومعبود خاصان • ولم يكن لمعبود الدويلة نفوذ الا داخل منطقته ، فان نشبت الحـــرب بين مقاطعة وأخرى اعتبرت حربا بين معبــوديهما ، فان تحقق النصر لدويلة سادت عبادة معبودها وان هزمت ضـــعفت عبادته أو زالت • فان تحقيق اندماج مقاطعة بأخرى سلميا اندمج معبودا المقاطعتين ، اما فى صورة زوج وزوجة أو أب وابن ••

وازالة للبس ؛ يمكن تقسيم أرباب مصر القديمة الى أربع مجموعات :

١ ــ أرباب محلية مثلت بأجســاد انسانية ورؤوس حيوانية •

٢ ــ أوزير والأرباب الموافقة له •

٣ ــ أرباب لاتقام لها معابد وتنتســب الى الفرعـون نفسه •

٤ ـ الشمس وغيرها من الأرباب ذات الأصل الشمسى ٠

ويعتبر آمون رب طيبة أعظم الآلهة المحلية ٠ وقد تطور من رب قرية صغيرة الى أن أصبح الاله الأعظم للعالم المعروف وقتذاك ٠ وكان يمثل ـ غالبا ـ فى هيئة كبش٠٠ وارتفعت أهمية آمون بارتفاع قدر قريته التى أصبحت عاصمة البلاد عند قيام الاسرة الحادية عشرة ، وفيها ابتنى منتوحتب الثالث هرما وشيد حوله معبدا وحمل كثير من فراعنة الأسرة الثانية عشرة أسماء تضم اسم آمون ، مما رفع قدره فأصبح أهم معبودات مصر ٠ وظل نجمه فى صعود متصل طوال حكم الدولة الحديثة فشيدت له المعابد ورصدت لخدمتها الأموال ٠ وبفضل قيام الامبراطورية ، لقب آمون بـ « رب الأرباب ، سيد السادة ، وملك الملوك ، وملك الآلهة » ٠

وعلى الرغم من اعتبار الفرعون ـ من الوجهة الرسمية ـ ابن الشمس فقد ساد الاعتقاد بين العامة أنه الابن الجسدى للاله آمون ، وأدخل الكهنة المصريون فى ذهن الاسكندر الأكبر نفس الفكرة وآمن بها ملوك البطالسة٠

ومن الآلهة المحلية التى أصبح لها شأن فى العقيدة الدينية المصرية : باست (القطة) وكانت تعبد فى الأصل بمدينة بوباست (تل بسطه) ٠ وقد حمل الرومانيون عبادتها الى ايطاليا ، ولاتزال آثار تقديسها قائمة فى معظم بلاد البحر الأبيض المتوسط ٠

وهناك الرب « حجوتى ـ توت » اله الكتابة والسحر والثقافة عامة ؛ وكان يعتبر رسول الآلهة • وتعزى اليه كتابة اثنين وأربعين مجلدا تتضمن حكمة العالم بأسره ، واعتبر رب القمــــر وقدسه اليونانيون وطابقوه مع ربهم « هرمس » •.

وتعتبر عبـــادة العجل أبيس من أقــــدم العبـادات المحليــة واعتبره المصريون تجســيد اله النيــــل (والاسم المصرى لأبيس هوحانى) ثم طـابقه المصريون مـع الاله أوزوريس • واندمـــج أبيس فى عهـــد البطـــالمة مع أوزوريس ليصبح ربا شاعت عبادته فى جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط وأطلقوا عليه سيرابيس الاب ، واعتبروا ايزيس الأم وحوريس الابن •

وثمة ظاهرة في تاريـخ الأديان مدارها أن العقيـدة الدينية تنبثق عن الأرباب المحليين ،ويتطور الفكر الدينى وطقـوس العقيدة بمرور الايام • بمعنى أن تقــدم المعرفة يعمل على تطور الفكر الدينى • ونتبين هذا بالنسبةللفكر الديني المصرى من استعراض الحقب الثــلاث التالية التى مر بها :

الأولى ـ حقبة ما قبل التاريخ ـ خلال عصر قد يكون ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ قبل الميلاد • وأدخلت خلالها عبادة الاله الذى ينهض من بين الاموات • وحلت الحقبة نتيجة للتقدم الزراعى ومعرفة الدورة الزراعية والاهتداء الى القمح وابتكار صناعة الخبز بالذات • وقد تطورت هذه العبادة الى عقيدة

أوزيريس • وبفضل هذا التقدم الاقتصادى والاجتماعى ، اختفت عادة التضحية البشرية تقربا لاله الخصب •

الثانية ـ حقبة وحدة البلاد الأولى ثم الثانية • وقد قاتل الملوك الأوائل تحت لواء الاله الصقر (حوريس) أقواما كان شعارهم التمساح أو فرس النهر أطلق عليه اسم سيتيخ (ست) • ونسجت من هذه المعارك أسطورة حوريس وست ، ثم أدمجت فيها أسطورة الاله الميت الحى أوزيريس ، فتكونت من الاسطورتين أسطورة واحدة •

الثالثة ـ بدأت فى عهد الأسرة الثالثة أو الرابعة وتألقت خلالها عبادة الشمس التى أصبحت خلال الأسرة الخامسة امتيازا خاصا بالفرعون وبيته وحاشيته وكبار رجال الدولة • ثم تطورت فى عهد الملك اخناتون الى وحدانية سامية •

وبفضل اندماج الأشكال المختلفة للدين أو تصادمها انبعثت آراء جديدة عن الاله وعن الصلة بينه وبين الانسان• وهذا ما يتضح للباحث من دراسة عبادة أوزيريس وطقوسها فانها أهم العقائد الدينية المصرية لانتمائها الى جميع فئات المجتمع المصرى وطبقاته ، كما نجد منحاها الفكرى فى كثير من البلاد الأخرى ومداها الاله المتجسد فى انسان • وغالبا ماتلازمها طقوس مصرع هذا الانسان الالهى الذى يختاره القدر لتأدية هذا الدور • وهو فى جميع الأحوال ملك ، وفيه تكمن روح الاله فيصبح الاله متجسدا • وتغدو روح الاله الكامنة فى الجسد الانسانى المختار هو روح الخالق مانح الحياة •

وللانسان الذى تجسد فيه الاله قدرة اضفاء الخصوبة على الأرض ، وههنـــا يغدو الملك فى أعين رعاياه هو الاله ينصب فى دنيا الناس حبا لهم • واذا كان البدن ليس خالدا والروح ليست بالضرورة خالدة ، فالكائن الالهى نفسه ليس خالدا واذا كانت حياة شعبه ورخاؤه يرتبطان به ، فان تعرضه للموت يعرض شعبه للدمار •

ولذلك اتجه التفكير المصرى الى اصطناع فكرة البعث •

فالتفكير المصرى قد جعل من الشمس الها أعظم ، ظلت له السيادة على اللاهـــوت المصرى حتى جاءت المسيحية • وتطورت أسطورة رع اله الشمس وفق البيئة الجـــديدة التى تناولتها والتى رويت عنها ، وكانت مدينة عين شمس الحالية ـ أى أون الفرعونية) مهد أسطورة اله الشمس •

لكن طرأ تطور هائل على العقلية الدينية المصرية بفضل تحول المصريين الى فلاحين وكشفهم زراعة القمح وصناعتهم الخبز • اذ لاحظوا النبات يموت ثم يحيا من جديد ، فكان أن الهوا فكرة الانبات • وقادهم التفكير والمشاهدة الى نتيجة مبناها أن الاله يعيش ، ثم يموت ، ثم يبعث من جديد •

وانتشرت الفكرة فى أنحـــاء الشرق الأوسط فاتخذ أوزيريس اله الانبات المصرى اسم تموز وآدونيس • وبالتالى، تعتبر عقيدة أوزيريس استجابة دينية لانتصار ثقافة الزراعة على ثقافة الرعى •

وطبيعى أن يقرن التفكير المصرى بين أوزيريس ومياه

النيل باعتبارها جوهر الخصوبة وأساس الحياة ، لاسيما فى بيئة مصر الجافة ، أى أن أوزيريس هو الخضرة بعامليها : الماء (وبخاصة أوقات الفيضان) والارض الخصبة • ويقترن أوزيريس بالنيل بصفة خاصة ، باعتباره أعظم مناظر الطبيعة المصرية وأشدها اثارة • وعلى مرور الأيام : جعل المصريون منه بشرا الها تولى أمور مصر والى جانبه اخته وزوجته «ايزه» (أى ايزيس) تحميه وتدفع عنه أعداءه ، لكن أعداءه بقيادة أخيه «ست» (رب الشر) وضعوه فى تابوت وألقوه فى النيل ، لكن عثرت عليه زوجته الوفية فى نهاية المطاف وكفنته بمساعدة أختها نفتيس • ثم كان أن نبتت شجرة جميز ظللت جسده : وبفضل دعوات ايزيس عادت اليه الحياة ، لكن ظفر به ست الشرير وقطعه اثنتين وأربعين قطعة بعثرها فى أنحاء مصر • لكن ايزيس جمعت القطع المتناثرة وكفنتها ••• وأخيرا حملت منه بالروح ، فأنجبت «حور» (حوريس) الذى حارب عمه الضال وانتصر عليه وتولى حكم مصر وتلاه فراعنة مصر الواحد تلو الآخر •

وألهبت عقيدة أوزيريس مشاعر المصريين ، فرسموه فى صورة الشهيد ضحية الظلم والحقد ، كما صوروا ايزيس فى صورة الزوجة الوفية وجعلوا منها رمزا للأمومة الخالدة ومن حور رمزا للكفاح فى سبيل رد الحقوق المغتصبة والابن البار بأبيه •

وسربت أسطورة أوزيريس وايزيس الى معظم العقائد والأديان فى أشكال وصور شتى • وأثرت فى

آداب الأمم المختلفة بما تعنيه من انتصار الخير على الشر ، وان طال الأمد · وما هذا كله فى واقع الأمر الا انعكاس تأثير خضرة النبات على أفكار المصريين ·

وانتشر هذا التأثير الى أنحاء البحر الأبيض المتوسط، فشاعت عقيدة ايزيس الأم العظمى ومنه انتقلت الى أنحاء العـــالم المتحضر ، وغدت عقيدة شـــعبية ابتلعت العقائد الارستقراطية وفى مقدمتها عقيدة الشمس التى اندمجت فى العقيدة الشعبية كما قررنا من قبل ·

ويذكرنا الصراع القـــديم على شاطىء النيل بين اله الشمس ورب الانبـــات بالصراع الذى حـــدث فى بداية المسيحية بين عبـــادة الامبراطور الرومانى باعتباره تجسيد اله الشمس ، وبين عبادة يسوع عليه السلام ·

ومهما يكن من الأمر ؛ فان الحاقدين على نسامى مصر الحضـــارى يسعون للانتقاص من مفاخر مصر الحضـــارية بالادعاء بأن المصريين القدماء قد جعلوا من الحيوانات والأشياء آلهة · وهذه فرية باطلة : اذ يســـتحيل على العقل مهما كان بدائيا أن يعتبر الأشياء والحيوانات أوحتى الكائنات الحية الا مجرد ظواهر مرئية ، أو مقر قوة ربانية تجريدية · فالمصريون ـ كغيرهم من الناس ـ قد ناشدوا الاتصال بهذه القوة القدسية ، فـكان أن وقع اختيـــارهم على طائفة من الأشياء ذات الصفات الخاصة التى تقع تحت أبصارهم ظانين أنها خير وسيلة تكفل مبتغاهم · وان كان لا ينكر أن الفلاحين قد عجزوا عن ادراك الطابع التجريدى

على حقيقته مثلما تدركه الصفوة المتقفة ، فلم يجاوز تفكيرهم الجوانب المادية وحدها • وانهم فى هذا الشأن كأمثالهم فى جميع العصور والأمكنة ، ولا استثنى العصور الحديثة •

ومن الناحية الأخرى اقتضى الفن المصرى ـ وله أهمية بالغة فى المجتمع المصرى ـ تجسيد الفكرة الالهية وتمثيلها فى صور مادية تحيل الصور الذهنية الى رسوم مرئية أقرب الى فهم عامة الناس بالذات ـ وبيئتهم زراعية ـ وليس المصريون بدعا فى هذا السبيل •

وتطالعنا فى التفكير الدينى المصرى قاعدة أساسية مدارها أن الذهن أو الفكر هو مصدر كل شىء ، وأن الكلمة الملفوظة واسطة الذهن ليصبح طاقة خلاقة • والكلمة هى التى تعلن الفكرة وتسبغ الواقعية عليها • وبالتالى يتخذ الفكر بفضل الكلمة وجودا موضوعيا •

وهذه الفكرة تبدت للعقل المصرى قبل توحيد مصر السياسى بوقت طويل جدا • ويطابق الفكر الدينى المصرى بين الاله وبين الذهن (ويعبر عنه بالقلب فى المخطوطات المصرية) الذى يفكر ، وبين اللسان الذى ينطق • ويتساءل العالم الكبير جيمس بريستد عما اذا كنا نلمح ههنا الأساس القبتاريخى (١) لمذهب الكلمة الوارد فى العهد

---

(١) القبتاريخى = أى ما قبل التاريخ ـ بمعنى العصور السابقة للعصر التاريخى الذى يبدأ بتولى نعرمر ـ مينا عرش مصر بعد توفيقه فى توحيد البلاد الثانى •

الجديد ومداره فى البدء كانت الكلمة ، والكلمة كانت مع الرب ، والـــرب هو الكلمة · فهل ثمة صـــدى للتجربة الانسانية على النيل ؟

ويجيب الاســـتاذ برستد على تساؤله بالقول بأن هذه الفكرة الهائلة التى انبثقت قبـــل أى تاريخ بشرى معروف تعتبر فى حد ذاتها دلالة على تقـدم ناضـج رائع انجزته الانسانية فى ابان هذا العهد السحيق · ثم يقول: ان الانسان ليصـــاب بالذهول اذ تتبدى له حقيقة واقعة لا معقب لها مدارها أن الانسان المصرى دون أن يمر بمراحل تدريجية قد انتقل مفاجأة من آلهة الطبيعة الى حضـــارة ناضجة متقدمة يظهر فيها القائمون على شئون الحكم والدين تفكيرا ناضجا تجريديا· ذلك لأن المفكرين المصريين الأقدمين قد ألفوا الدنيا حولهم تؤدى عملها فى وضوح وجلاء ؛ فاستنتجوا أنها قد استكملت مقوماتها ، وأن ثمة عقلا يحيط بالكون بأسره يحفظه ويرعـــاه · وآمنوا أنه بفضل الاله والكائنات ، يشمل سلطان الاله كل عضـــو من أعضاء المخلوقات الحية على اختلافها · وأنه هو الذى وضع مراتب الشرف ونسق الأداة الحكومية ، وعين لكل فرد فى المجتمع عمله الخاص ، وهيأ لكل انسان مصدر رزقه ، وأنه يراقب متجهات كل انسان ، ويرعى كل مخلوق بصفة عامة ·

---

(٢) صفحة ٣٧ وما بعدها Dawn of Conscience

وطبيعى أن يتكسف تطور الحياة عن وجود أفعال يرضى عنها الخالق وأخرى لا يرضى عن اتيانها ، وأنها تجد صدى فى نفوس أفراد المجتمع الذين يستحسنون اتيان فعل ويستهجنون ارتكاب آخر . أى أن هناك أفعالا محبوبة وأخرى تعافها النفوس وتمقتها القلوب . وبالتالى ؛ فانه منذ أن استوى الانسان على الأرض بشرا سويا ، عرفت البشرية التفرقة بين الصالح والطالح من الأفعال . وأدركت العقلية المصرية منذ زمن سحيق وجود ذات أسمى وأخذت تكافح لمعرفة الخصائص الجوهرية التى تميز هذه الذات الأعلى .

ويتسم الحكم فى مصر بترابط أجزائه جميعها برباط وثيق وذلك بفضل النيل : ترابط جعل الحكم المركزى ضرورة لازمة لحياة الشعب وسلطان الحاكم يجب كل سلطان. بل انه القلب الذى يزود جميع أجزاء الجسم بالحياة. ومن ثم ، تبلورت فى الحاكم الأعلى بعد توحيد البلاد صفات الربوبية ، فأصبح الفرعون مصدر القانون ومسبح الحياة والموت : ذلك لأنه تجسيد الاله على الأرض . فاذا مات انتقل الى السماء يسبح فى المحيط السماوى مع والده رع (أى الشمس) . أى أن الفرعون هو الاله الحى ينتصب فى دنيا الناس .

ولقد أشرنا فى الفصل السابق الى أن التفكير الدينى المصرى قد تنازعه مصدران هما ماكانت تقع عليه عينا المصرى يوميا :

الأول ـ الشمس ٠

الثانى ـ الخضرة ٠

وهذان المظهران من مظاهر الطبيعة قد أثرا فى الفكر المصرى منذ أقدم عصوره ٠ ودفعه غموض هاتين الظاهرتين الى تصورهما الهين عظيمين ٠ ولقد أضفت فكرة الموت على الديانة المصرية طابعا خاصا وأثرت على الوعى الدينى تأثيرا عارما تناول كهنوت العبادة الشمسية وعبادة أوزيريس على السواء ٠

وحقا ، لا نجد بين أمم العالم قديمه وحديثه أمة شغلت لديها مسألة الحياة بعد الموت تلك المكانة التى شغلتها فى اذهان قدماء المصريين ٠ وهذا الاهتمام البالغ بمسألة الحياة بعد الموت يرتد الى ازمنة سحيقة تبعد كثيرا عن عصر الأسرات ، اذكشفت أجسام ترجع الى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد معتنى بحفظها ودفن مع أصحابها أمتعتهم الدنيوية لاستخدامها فى العالم الآخر ٠

فما هو السر وراء اهتمام المصرى القديم بالحفاظ على جسده انتظارا لحياة أخرى ؟

لعل مرجع ذلك دورة الانبات : اذ شاهد المصرى الفيضان يعود العام بعد الآخر بعد شهور من المحل فيترعرع الزرع بعد جفاف ٠ أى تعود الحياة الى الأرض بعد موات ٠

وقارن هذا بحالته الخاصة . وشجعه على ممارسة عملية الحفاظ على جسده ، سهولة ذلك فى بيئة مصر الجافة .

وتتألف ذاتية المـــرء فى الحياة الدنيا ، وفق التفكير المصرى القديم من : الجسم المرئى ، والتفكير غير المــرئى ومركزه القلب ، ثم الجوهر الحيـوى ويعبر عنه بالتنفس وينفخ الحياة فى الجسم ويطلق عليه اسم « با » ويرسم فى صورة طائر ذى أيد بشرية . ويعاون الانســـان فى غضون حياته وبعد موته ، روح تحرســه وتحفظه ويطلق عليها « كا » وتسبقه الى الآخرة لتستقبله هنك .

أعنى أن الموت لم يكن فى نظر قدماء المصريين سوى فترة نوم تتلوها عودة الروح الى الجسد لتعيد اليه نفس الحياة الطبيعية التى لا تختلف فى شىء عن الحياة الأرضية . وهذا مادفعهم الى تزويد مقـــابرهم باحتياجات المعيشة الدنيوية التى ألفوها فى دنياهم . وحسبك دليلا تلك الأمتعة الفاخرة والرياش الثمين وغيره مما كتشف بمقبرة توت عنخ آمون . أما متوسطو الحال من الناس ، فزودوا مقابرهم بنماذج لاحتياجاتهم ، وقنع من دون ذلك بنفش رسومها على الجدران على أمل أن تدب فيها الحيـــاة بقـوة السحر .

وقاد حرص المصريين على صون أجســادهم من البلى ، لارتقاء الطب والكيمياء الى حد مذهل لم يتفوق عليه العلم الحديث الا أخيرا . فقد أولوا ســلامة جســد الميت أكبر

أهمية ، ويعنى فناؤه تلاشى صاحبه أبد الآبدين • ويقودنا هذا الى مقارنة فكرة المصريين القدماء عن البعث بمعتقدات الأديان الكبرى :

فالمعتقد المصرى يشـــارك الأديان الســماوية الثلاثة فى الايمان بحياة بعد الموت ، وفى الاعتقاد بأن البعث يتيح حياة خـــالدة ونعيما مقيما • لكن يفترق المعتقد المصرى فى ايمانه بضرورة الحفاظ على الجسد ســـليما لتعود اليه الحياة ، مثلما يحافظ هو على الأرض ، الى أن تعود اليها مياه النيل بحلول الفيضان •

أما الأديان السماوية الثلاثة فلا تسلم بالمحافظة على الجسد ، ذلك لأن ارادة الله كفيلة بأن تحى العظام وهى رميم •

ولا تعترف أديان الشرق الأقصى الكبرى بالبعث لكنها تؤمن بالتناسخ : ويعنى انتقال الروح من مظهر مادى الى آخر مادى ، سواء أكان بشريا أم حيوانيا أم نباتيا • ويعنى الرضاء الربانى كسر سلسلة التناسخ فتصبح الروح فى حالة ســـكون ، ، وهذه هى الجنة البــوذية والبرهمانية الموعودة •

وبالتالى ، يدرك الانســان الخلاص المنشـــود فى العقيدة المصرية والاديان السماوية بحياة خالدة بالجسم والروح ، بينما يدركه فى العقيدتين البوذية والبراهمانية بالروح عن طريق توقف حركة التناســـخ التى تعتبرها العقيدتان عقابا يوقعه الاله الأعظم بالروح فتحل فى ملايين

الاجسام على صور شتى الى أن تدركها الرحمة الالهية .

وتفصح دراســـة التفكير الدينى المصرى عن حقيقة لا تمارى مبناها أن العقيدة الدينية هى نتاج البيئة والفكر المصريين . فأسماء الآلهة ومعـــانيها مصرية بحتة ، بل ان عبادتها قد انتقلت الى مختلف بقاع الامبراطورية المصرية فى ابان ازدهارها .

كذلك لا يمكن أن ترتضى العقلية المصرية أن يفرض عليها قسرا منحى تفكيرى معين سواء أكان فى صورة عقيدة دينية أم متجه فكرى : اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى . وقد يسكت المصرى ــ ساخرا ــ على كل ظلم يتصل بحياته المادية ، وقد يخضع له على مضض ولكن يختلف الحـــال ان اتصل بأموره الروحية ، فانه لن يسلم اطلاقا باخضاع مقوماته الروحية لانسان مهما كان شأنه . وهنا يستبين لنا العامل الرئيسى فى فشل اخناتون فى حمل المصريين على الايمان بدعونه ، ذلك لأنها صـــدرت عن رئيس الدولة ، وكذلك فشـــــل امبراطور بيزنطة فى تحويل المصريين الى مذهبه الدينى ، وأخفقت الدولة الفـــاطمية فى تحـــويل المصريين الى عقيدتها الخاصة بل لقد اســـتحالت مصر الى حصن مذهب السنة الحصين ولاتزال .

الفصل الرابع

عقيدة آتون التوحيدية

لم يحظ حاكم مصرى ـ بل ربما فى العالم كله ـ بمثل ماحظى به أخناتون الملك المصرى من عناية الباحثين والكتاب. ولم يتطرف الكتاب فى الحكم على شخصية تاريخية مثلما تطرفوا فى الحكم على أخناتون ، على الرغم من ضآلة المصادر والمراجع التى خلفها عصره .

فان هناك من أغرق فى مديحه والاشادة به ، فوضعه فى صف أصحاب الرسالات الدينيـــة العظمى . بل ذهب البعض الى القول بأنه عبقرية دينية فذة لا نظير لها ، بينما يجرده البعض الآخر ـ وهم قلة ـ من كل امتياز وينفى عن دعوته كل معنى أو مغزى كريم ، بل ويلصق به شتى التهم النكراء .

ولكن ؛ ما انفكت الكتب تؤلف عن أخناتون ، والقصص تحكى سيرته ودعوته ، والأفلام نصور حياته وتعرض لمبادئه • وبعبارة شاملة ؛ فالحديث عن أخناتون لا ينفد ، منذ كشف آثار تل العمارنة بمحافظة أسيوط فى أواخر القرن التاسع عشر •

ففى عام ١٣٧٥ قبل الميلاد ؛ توفى أمنحتب الثالث الذى بلغت مصر فى عصره أزهى عصورها الحضارية وأبهاها• وخلفه ابنه أمنحتب الرابع (أخناتون) • فكان توليه الملك ايذانا باستفحال الصراع بين البيت المالك وكهنة طيبة : صراع بدأ منذ عهد جده تحتمس الرابع ، واشتد أواره فى عهد أبيه • اذ كان نفوذ كهنة آمون قد تعاظم على حساب سلطان الملك • فكان أن أخذ البيت المالك ينحو الى احياء عبادة الشمس راجيا اضعاف سلطان كهنة آمون •

ولم يكن أخناتون مسيرا فى اتجاهه الدينى بالعوامل الذاتية ــ مثلما فعل أبوه وجده ــ فلقد رنا الى أبعد من ذلك كثيرا ؛ اذ هفت نفسه الى الروحانية المجردة من الأغراض الدنيوية • وتبلورت عقيدته فى عبادة القوة التى تعتبر الشمس أعظم مظاهرها على الأرض • واتخذ من اسم «آتون» علماً على تلك القوة •

و « آتون » اسم قديم للشمس المادية • ورمز أخناتون الى هذه القوة بقرص الشمس ينبثق منه شعاع ينتهى بأيد بشرية تحمل ــ فى بعض ــ علامة الحياة المصرية

القديمة ، أى الـ « عنخ » • وبالتالى ؛ استعمل أخناتون كلمة « آتون » التى تدل على كائن مادى ، للتعبير عن معنى تجريدى بحت •

ولم يعلن أخناتون عقيدته الدينية الا فى السنة الرابعة من حكمه • وهنا غير اسمه من أمنحوتب (آمون راض) الى أخناتون (ليسعد آتون) • ثم شن حملات صادقة على آمون ، فأمر بمحو اسمه من جميع السجلات والمعابد •

والتنافر واضح بين كل من آمون وآتون :

فان معنى اسم « آمون » هو المختبىء الذى لا يرى والقوة الشاملة لكل شىء••وكان يرسم على شكل انسان•• ويقع قدس أقداسه فى آخر المعبد ، وفى أشد أجزائه ظلمة ولا يمكن بلوغ هذا المكان الا بعد تأدية طقوس معقدة ، لا يسمح بها الا لأشخاص محدودين للغاية • وكان هيكل الاله يلف أثناء المواكب العامة بغطاء حتى لا تقع أعين بقية الناس عليه ويحمله كهنة مختارون •

أما آتون : فانه قرص الشمس ذاته الواضح للعيان ، الذى لا يمكن حجبه عن أى انسان • وكانت المعابد الآتونية مفتوحة للسماء لتتيسر عبادة الاله فى صراحة واضحة بمنأى عن الغموض • وليس لآتون شكل انسانى البتة • وانحصرت صلة آتون بالهيئة الانسانية ، فى أن الأشعة التى تتدلى من قرص الشمس تنتهى بأيد تقدم رمز الحياة الى العابدين •

وأخلص أخناتون لوحدانية « آتون » . فأمر بطمس كلمة « آلهة » أينما وجدت . ولم تنج من حملته عبـــادة أوزيريس الشعبية . واذ وجـــد عبـادة آمون عريقة فى طيبة وأدرك استحالة انتزاع مكانة آمون منها ، فقد ابتنى لنفسه عاصمة جديدة سماها « أخيتاتون » (أى أفق آتون) وأقام مدينة لآتون فى النوبة ، وأخرى فى آسيا ، أى فى أجزاء الامبراطورية الثلاثة : سوريا ، مصر ، النوبة .

وبالأحرى : لم يعد الاله اله مصر وحدها ، بل انه اله الدنيا بأسرها . كذلك قصد أخناتون من نقل عاصمة ملكه من طيبة الى أخيتاتون توجيه ضربة قاتلة الى كهنـــة آمون بالحيلولة دون وصول ثروات الامبراطورية اليهم ، على أن مدينة أخيتاتون قد هجرت بعد وفاته وأعملت الحكومة التى خلفت حكم اخناتون معاول الهدم والتخريب حتى لم يبق من أبنيتها اليوم حجر على حجر .

فاخناتون ليس الاله ، ولم يدع انه الاله ، مثلما ادعى الفراعنة من قبله ومن بعده أنهم آلهة أو أبناء آلهة .

والعالمية هى الدعامة الأساسية لعقيدة آتون . وهـــذا ما يوضحه نشيد أخناتون بجلاء :

« فى بلاد سوريا وأرض مصر ، تضع كل شىء فى مكانه
انك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه
وتزود كل كائن بطعامه ، وتقدر له أجله

وبفضلك ، يختلف الناس فى لغاتهم
وتفترق طبائعهم
ويتباين لون جلودهم
فأنت الذى ميزت الأمم الأجنبية عن بعضها بعضا
وأنت الذى تهبها الحياة • »

وفى الحق ؛ لم تعرف الحضارة البشرية هــذه النزعة الروحية العالمية قبل أخناتون • فانه هو أول أبناء الجنس البشرى ادراكا لوحدانيــة الله وشموليته • ويزداد عجب المرء اذا علم أن هذا الفرد هو ملك أقــدم أمة وأعظم دولة متحضرة ، كما أنه حاكم أول امبراطورية عالميــة عرفهـــا التاريخ •

فاخناتون لم يكن فردا عاديا دفعته أحاسيسه النبيلة لانقاذ مجتمعه من أوزاره ، وتخليص مواطنيه من الجهــالة التى يكابدونها ؛ بل كان ملكا آثر التضحية بملذات الحياة وبأبهة الملك فى سبيل مبدأ اعتقد فيه خلاص الانسانية من الشرك وما يحوطه من تحلل خلقى •

وأخناتون هو الذى قاد أول ثورة فى التاريخ شملت كل جانب من جوانب الثقافة والحياة الروحية • فــكان أن جلب على رأسه عداء الناس وكراهيتهم ، ولقبه أعداؤه بالمجرم وعملوا على طمس ذكراه وازالة اسمه من على جميــع الآثار المصرية • وأمحت ذكراه بالفعل ، الى أن كشف الباحثون

فى أوائل القرن التاسع عشر سجلات مدينته ومحفوظاتها. فكان أن انبعثت ذكراه الى الوجود وأصبح اسمه يدوى ويثير عواطف الباحثين .

ولقد سعى أخناتون الى أن يحل محل الحشد الضخم من الآلهة التى يتزعمها آمون/رع اله فرد حق ، ليس له صنم ، بل هو أثيرى الهيئة تتبدى عظمته للناظرين فى قرص الشمس « آتون » . ولم يكن أخناتون مسيراً فى مسعاه بدوافع سياسية مثل التي دفعت بطليموس سوتير الى توليف مزيج من العبادات لتوحيد العالم الهلينى روحيا ، ودفعت السلطان أكبر الى توليف ديانة رجا من ورائها القضاء على انقسامات الهند الدينية التى تعوق تقدمها وتثير الشحناء والبغضاء بين أبناء الوطن الواحد .

وماهدف أخناتون الى تمجيد ذاته ؛ بل لقد ضحى فى سبيل دوافعه الروحية البحتة بامبراطوربة عظيمة الأرجاء أقامها أجداده العظام ، ولم يأبه للانقسام الذى هدد كيان مصر الاجتماعى . فلقد سيطرت على ذهنه فكرة واحدة مدارها أن الاله الحق قد اختاره للتبشير بوحدانيته.

ويلاحظ الباحث من استقراء نشيد أخناتون شدة افتتانه بالطبيعة فهو القائل :

« وتقنع كل الحيوانات بمراعيها ، وتزدهر الأشجار والنباتات

والطيور التى تطير من أعشاشـــها ، تمد أجنحتهـا لتمدح قوتك

وتقف الحيوانات على أرجلها ، وكل مايطير أو يحط انهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم

وتمرق الأسماك فى النهر أمامـك ، لأن أشـــعتك تتغلغل فى المحيط » •

كذلك ؛ يتبدى ادراك أخناتون لوجود الله فى الطبيعة وايمانه بتجليه تعالى فى جميع مظاهر الحياة المرئية :

« أيها الخالق لبذرة الحياة فى النساء ، أنت تجعل من البذرة السائلة انسانا

تعنى بالطفل فى بطن أمه ورحمها ، وتهدئه بما يوقف بكاءه

أنت الذى تهب النفس ليحفظ حياة كل من تخلقه

فان صرخ الكتكوت داخل البيضـــة ، تمــده بالنفس ليعيش •

فاذا ما تم خلقه داخل البيضة توحى اليه بكسرهـا ، فيخرج ماشيا « يوصوص » •

ولقد لاحظ بعض الباحثين المشابهة القوية بين بعض أبيات نشيد أخناتون وطائفة من فقرات مزمور داود رقم ١٠٤ ، وهى مشابهة تكاد أن تكون تامة ؛ الأمر الذى يقطع بتأثير عقيدة أخناتون على التفكير اليهودى فى بعض مراحله • لكن سيجموند فرويد العالم السيكلوجى الأشهر يقطع فى كتابه « موسى والوحدانية » بتأثير عقيدة « آتون » على أسس اليهودية ذاتها •

اذ يرى فرويد أن كلمة أدوناى العبرية (وهى اسم الرب فى العقيدة اليهودية) تحريف لكلمة آتون المصرية • وتمتاز ديانة أخناتون بخلوها من الأسطورة والسحر والعرافة ولا يمثل الاله فى صورة هرم صغير أو صقر ولم ينحت له تمثال • فالاله الحق وفقا لعقيدة أخناتون ، ليس له شكل محدد • ويقول فرويد ان هذا أحد الوصايا العشر التى ارتبط بها بنو اسرائيل بعد خروجهم من مصر مباشرة • ثم يسوق ــ أى فرويد ــ الدليل تلو الدليل على أن موسى ــ عليه السلام ــ لم يكن يهوديا ، بل كان مصريا صميما ظهر فى عصر أخناتون • ثم يقرر أن اليهود قد اعتنقوا عقيدة أخناتون وكانت العامل الحاسم فى تطورهم الدينى ، واقتبسوا من مصر طقوس العبادة والمراسم الدينية التى أصبحت علما عليهم • ومن رأيه أن موسى كان من مريدى أخناتون ، بل يرجح أنه من البيت المالك ، وأن خروج اليهود

من مصر قد تم فى تاريخ يقع بين عامى ١٣٥٨ و١٣٥٠ قبل الميلاد عقب وفاة أخناتون(١) ٠

ومهما يكن من أمر تسامى عقيدة آتون تساميا عظيما بالنسبة الى عصره ، فقد فشلت هذه العقيدة فى اجتذاب الشعب والصفوة – على السواء – الى حظيرتها ، لجملة أسباب :

الأول – انبعثت العقيدة الآتونية من أعلى ، أى من الحاكم ٠ وهذا يباين طبيعة العقائد الفكرية الناجحة التى تتسم بانبعاثها فى أوساط الجماهير وبين ظهرانى الطبقات المستضعفة بالذات ٠ فالعقيدة – **أية عقيدة** – لا تفرض بقانون أو أوامر ادارية ٠ وهذا ماجعل الطبقات المصرية الدنيا تصدف عن اعتناق عقيدة أخناتون لأنها صدرت عن السلطة العليا التى تمثل لديها الاستغلال والطغيان ٠

أما الطبقات العليا ؛ فقد اعتبرت أخناتون خائنا للمصالح المصرية ٠ فانه قد كرس وقته كله لعبادة الهه الواحد غير ملق بالا للأخطار التى باتت تحدق بالامبراطورية المصرية ، وأصم أذنيه عن نداءات الاستغاثة التى انهالت

---

(١) انظر تفصيل آراء العلامة فرويد عن العلاقه بين الآتونية واليهودية فى كتابنا « مشكلة اليهودية العالمية » – المكتبة الثقافية (عدد ٢٤١) ٠

عليه من حكام مقاطعات الامبراطورية • بالاضافة الى أن مبادىء اخناتون تهدر مصالحهم المتوارثة •

الثانى ـ افتقرت عقيدة أخناتون الى الناحية الميتافيزيقية والشطحات التصوفية • ولهذا فضل مجموع الشعب التزام عقيدته القديمة حيث توافرت فيها هذه الناحية • ذلك لأن الآتونية قد خلت من الأساطير ، أو بعبارة أوضح من التراث الشعبى الذى يجتذب العامة ـ أساسا ـ الى حظيرة العقيدة الدينية • وبالتالى ؛ أخفق أخناتون لأنه خاطب العقل والفكر ونأى عن العاطفة ، وعمل على القضاء على التراث الروحى الذى لازم الشعب آلاف السنين ، دون أن يعوضه مايرضى عواطفه وأحاسيسه الباطنية وخيالاته •

الثالث ـ لم يخلف أخناتون مريدين وأتباعا يناضلون للحفاظ على مبادئه ويستشهدون دفاعا عنها • ولو وجدت عقيدة أخناتون مثل هؤلاء الأتباع البررة ، لاستمال استشهادهم المستضعفين من الناس الى عقيدتهم وآمنوا بمبادئها • وههنا كان يتغير وجه التاريخ المصرى تماما • ذلك لأن العقائد المصرية كانت قد أصابها التحجر فكان أن خبت جذوة الابداع فى النفس المصرية ، فانتهى الأمر بالحضارة المصرية الى التحلل فالانهيار ، اذ لا يخفى تأثير الايمان الحاسم فى النفس المصرية •

وفى الواقع ؛ ما دعوة أخناتون سوى محاولة لتجديد شباب الروح المصرية لتتهيأ لاقامة منجزات ابداعية جديدة •

بيد أن دعوة أخناتون قد انحصر الايمـان بهـا فى الملك وعائلته وفى طائفة من المقربين اليه ، معظمهم من الوصوليين الذين قصدوا من التظاهر باعتناقها ، تسنم المراكز الكبرى فى الدولة وفى البلاط .

ويتفرع عما تقدم : ما يأخذه بعض البـاحثين على عقيدة آتون من خلوها من التعاليم الخلقية . فان آتون مجرد اله خالق تولى خلق جميع الكائنات وتوفير احتياجاتها . فليس ثمة ما ينبئ عن ثواب للمحسن أو عقاب للمسئ .. وتخلو العقيـدة من معنى الخطيئة ، أو حتى من مغـزى اصطلاحى الصالح والطالح .

وهذا فى رأيى حـكم مبتسر يقوم على تلك الأبيات القليلة من نشيد أخناتون . ولا يعقل أنه لم يخلف سواها طوال حكمه الذى أمضاه فى العبادة والتأمل ، وكرس ذاته خلاله لنشر مذهبه الثورى . وقد تكون بدائعه الدينية فقدت فى خضم حملة التعصب والكراهية التى شنها أعداؤه عليه وعلى تعاليمه .

ولا ينكر أحد على أخناتون صـفاءه الروحى ومزاجه الشاعرى الذى يتبدى فى انتفاء مظاهـر الخوف والرهبـة والتدمير والقسوة والانتقام من عقيدته ، فانه يصور الرب رحيماً شفوقا برا بمخلوقاته ، يسبغ على الجميع أفضاله ، ويسبحون بحمده لا خوفا ورهبة ، ولكن بدافـع الشـكر لأنعمه .

ولقد أثرت حركة أخناتون فى فنون عصره ، اذ أصبحت تتواءم مع الواقع والحق ، وتنفر من التزييف تطبيقا لفكرة الملك القائلة « ذلك الذى يحيا مع الحق » ٠٠ ولم تعد تماثيل الملك نفسه تعبر عن مظهره باعتباره الها يجب ابرازه فى أبهى حلل القوة والخلود ٠ فان أخناتون قد شجع المثالين والمصورين على مراعاة الأمانة وأن يستوحوا الحقيقة المجردة ٠ فلا بدع وأن يخلف لنا عصره أعمالا فنية تتجلى فيها نقائصه الجثمانية ٠ وسمح لفنانيه بتصوير حياته الخاصة ، ونجد فى المتحف المصرى تمثالا لطيفا له وهو يقبل ابنته أو حتى زوجته ٠

على أن أثر أخناتون الباقى ، قراره اطراح اللغة المصرية التقليدية التى ظلت طوال ١٥٠٠ سنة – حتى عهده – دون تغيير أو تبديل ، واسطة الآداب والعلوم ، والاستعاضة عنها باللغة التى يتحدث بها الشعب ٠ واذا كانت آراء اخناتون الدينية قد ماتت بموته ، لكن قيض البقاء لاصلاحه اللغوى ٠

ومهما يكن من أمر الاختلاف فى تقييم منجزات أخناتون الروحية والفكرية ، فان الآراء تتفق على نبل مقاصده وسلامة نهجه ٠ ودعوته هى أول دعوة لتحرير العقل من جهالة الشرك ، وفك اسار الضمير البشرى من سلطان طبقة من رجال الدين الفاسدين الوصوليين ٠٠ ويعتبر منهاجه أولى حلقات سلسلة تطور العقائد الدينية الذى انتهى بظهور الأديان السماوية ٠

الفصل الخامس :

منتجات الأدب المصري القديم

اعتبر المصريون الثقافة أقوم سبيل يحقق المركز الكريم والعيش الرغيد ويكفل السمعة الطيبة ، وكان الفرد يزهو على أقرانه ان لقب بالكاتب، وكان أعز أمانيه أن يقيم لنفسه تمثالا فى المعبد أو المقبرة يمثله جالسا متربعا ينشر بردية مكتوبة على فخذيه كأنه يكتب أو يقرأ ما عليها ٠ اذ يعنى هذا انتسابه الى الصفوة المثقفة ٠

ويرجع المصريون الكتابة الى معبود أسموه « تحوتى » نسبوا اليه أنه لقن أسلوب الحديث وطريقة الخط للناس ٠ وقد حرص الفراعنة على تصوير أنفسهم يحملون لوحة الكتابة ليعتقد الناس أنهم كتاب مهرة وأن لهم باعا طويلا

فى ميادين الثقافة • وليس أدل على أهمية المثقف من أن أوزير رب العالم الآخر يغضب ان وفد الى حضرته جاهل • وينبئنا تاريخ الأدب المصرى أن كثيرين قد عزفوا عن المناصب وعن الثروة وانصرفوا لاشباع نهمهم للثقافة وتبتلوا لحياتهم الفكرية وأغرموا بنواحيها المتشعبة • وقد تمسك المثقفون بآدابهم القديمة باعتبارها تراثا قوميا ، لكنهم أفسحوا المجال لآداب عصرهم •

ويرجع أقدم ما وصل الينا من المعلومات عن اللغة المصرية القديمة الى عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد على أرجح الأقوال ، وقد كابدت منذ هذا الحين عدة تطورات وتغيرات الى أن انتهت الى صورتها التى عرفت اصطلاحا باللغة القبطية التى ظلت فى التداول حتى القرن السابع عشر الميلادى ، ثم انحصر استخدامها فى بعض أدعية وترانيم وأناشيد الكنيسة المسيحية المصرية • وزالت كلغة رسمية ، وان بقيت منها آلاف من الكلمات والتعبيرات قائمة فى اللغة المصرية الدارجة ـ وبخاصة فى الجنوب ـ حتى الآن •

وفى خلال هذه الحقبة الطويلة دخلتها كلمات جديدة واستخدمت تعبيرات طريفة ، واندرست كلمات وبطل استخدام تعبيرات وتبدلت معانى مصطلحات ، حتى ليمكن تشبيه علاقة اللغة المصرية فى شكلها الأخير (أى القبطى) باللغة المصرية فى عهد الدولة القديمة ، بعلاقة الفرنسية أو الايطالية أو الأسبانية الآن باللغة اللاتينية •

وتبع ذلك أن انبعثت اللهجة المصرية ذات الصفات المميزة والطابع الفريد بين لهجات البلاد المتحدثة بالمغـــة العربية • بل أن لغة الكتابة المستخدمة فى مصر ذات طابع خاص مستمد من تأثير البيئة المصرية ؛ وقد أسبغ عليهـا التطور الحضـــارى المصرى لونا فريدا : من ناحية التعبير والتفكير على السواء •

وبالتالى؛ تنقسم مراحل تطور الأسلوب اللغوى المصرى القديم الى الأقسام التاليـة : قديم ، متوسط ، حـديث ، ديموطيقى ، قبطى • وكانت المرحلة اللغوية القديمة هى السائدة فى ابان عصر الدولة القديمة ، وقد أسبغت عراقتها عليها احترام العصور التالية وتوقيرها ، ويطالعنـا أحسن أمثلتهـا فى متون الأهرام • وكان الخط الهيروغليفى والخط الهيراطيقى مستعملين خلال الأسرة الأولى ، كما كان النظام العشرى ـ حتى المليون ـ معروفا •

وسادت المرحلة اللغوية المتوسطة خلال عصر الدولة الوسطى • ولقد خلفت لنا الأسرة الثانية عشرة الكثير من القصص والرسائل مكتوبة بالخط الهيراطيقى •

وانبعثت المرحلة اللغوية المتأخرة خلال الأسرة الثامنة عشرة ، ولا سيما فى ابان عصر اخناتون • وخلف لنا هذا العصر نصوصا أدبية حررت بالخط الهيراطيقى •

وتمثل المرحلة اللغوية الديموطيقية اللهجة الدارجـة للعصر الصاوى • وترجع هذه المرحلة الى الأسرة الخامسا والعشرين واستمرت حتى القرن الرابع الميلادى • ويتألف

معظم التراث اللغوى للمرحلة الديموطيقية من عقــود بيع ومسائل قانونية وصيغ سحرية .

وتتسم المرحلة القبطية باستخدام الحروف اليونانيــة بعد اضافة ستة أحرف، استعيرت من الديموطيقية للتعبير عن الأصوات الخاصــة باللغــة المصرية والتى لا نظير لهــا فى اليونانيــة .

ولقد أثبتت دراسات الباحثين بما لا يدع مجالا للشك ، أن نظام الكتابة المصرى القديم قد نشأ بمصر وتطور بها . ومنهــا انتشر استخدامه الى البلاد المجاورة وبخاصة فى عهد ازدهار الامبراطورية المصرية . ويبدى كثير من الثقات أن التجار الفينيقيين قد استعاروا الأبجدية الفينيقية حوالى عــام ١٠٠٠ قبل الميــلاد من الخــط الهيراطيقى المصرى . واستخدم المصريون فى بداية الأمر الصور للتعبير عن الألفاظ، ولم يعدلوا عنها بسبب نزعتهم المحافظة ، فاستمروا يسجلون بها الأحداث على المبانى ويكتبون بها الوثائق الدينية وأطلق عليها اليونانيون اسم الهيروغليفى ويعنى الكتابة المقدسة ، بينما أطلق عليها المصريون اسم « كلمات الآلهة » . على أنهم قد ابتكروا ما يعرف بالخط الهيراطيقى للوفاء بمتطلبات التعامل الدنيوى العادى ، وقاعدته اختزال علامات الصور لتسهل كتابتها ، لكن بلغ التغيير حدا أبعدها عن الأصل بعدا تاما . وظل الخط الهيراطيقى مستخدما حتى عام ٧٠٠ قبل الميلاد ، ثم تطور الى ما أطلق عليه اليونانيون « الخط

الديموطيقى » ويمتــاز بسهولته • ثم استخدمت الحروف اليونانية ــ كما ذكرنا ــ فى المرحلة التالية •

والمصرى بطبعه أسير النزعة الجمالية • وهذا ما دفعه قديما لأن يضحى بالترتيب المنطقى لعلامات الكتابة • فكان أن آثر كتابتها فى مجموعات مربعة ، واقتضى ذلك أن تكتب تارة عمودية ، وتارة أفقية • وفيما خلا الحفاظ على الناحية الجمالية ، فالقاعدة أن تكتب اللغةالمصرية (بأساليب كتابتها الثلاثــة) من اليمين الى اليسار • وغالبــا ما تلون الحروف الهيروغليفية ، ويمتــاز لون الطيور بالروعــة وقد التزم الكاتب الفنان بمحاكاة الطبيعة الى الحدود التى تسمح بهـا الألوان والأصباغ المتاحة •

ويعكس الأدب المصرى عقلية قدماء المصريين وأمانيهم • ويتصــل بالأساطير الدينية والاناشــيد والأغانى والحــكم والنصائح • وثمة نصوص طريفة تنسب الى الملك أمنمحعت الأول تشابه كتــاب الأمير لماكيافيللى ، اذ خلف الملك لولى عهده وصايا تتصل بمبادىء الحكم الصالح • ومن قبيلهــا وصايا آنى لوريثه •

ويسيطر الأدب الدينى عــلى جميــع جوانب الأدب المصرى • ولم يكن هذا غريبا فى بلد يعتبر رجــال الدين فيه دعامة الصفوة المثقفة وعمادها ، وما انفك • الذين ينزل فى نفوس سكانه أعــلى مكانة • ويتألف الأدب الدينى من مجموعة من الابتهالات والأدعية يرجع أقدمها الى الأسرات

الأولى ، أو الى عهود ماقبل الأسرات ، ويطلق عليها الآن نصوص الأهرام• وقد شرع القوم فى تسجيلها ابتداء من حكم الملك أوناس (ونيس) آخر ملوك الأسرة الخامسة ، ويبلغ مجموعها ٧٤١ تعويذة تحتــوى على صلوات وبعض طقوس دينية وسرد أنباء حروب نشبت بين الآلهة • وكانت تلك النصوص حكرا للملوك ، فكان أن ظهر مايطلق عليه نصوص التوابيت وكانت مشاعا بين الناس • وأخيرا ظهر كتــاب الموتى وينقسم الى سلسلة من الفصول كتبت عــلى أوراق البردى وتضم تعاويذ ووصفا للعالم الآخر وما فيه •

وقد خلف لنا الأدب المصرى طائفة من الأساطير أذكر جوهر بعض منها من قبيل المثال :

١ ـ أسطورة خلق الاله الأعظم للناس ثم عصيانهم له وقراره ابادتهم • لكنه يرحم البشر لضعفهم فيعفو عنهم •

٢ ـ أسطورة الصراع بين حور وست • فان ست قتل أخاه أوزير حقدا وحسدا لمحبة الناس له لأنه علمهم الزراعة والصناعات والفنون • ثم اغتصب ـ أى ســت ـ ميراث ابن أخيه حور الذى حملت به ايزيس زوجة أوزيريس بالروح منه • ولما طالب حور بأحقيته فى عرش أبيه حاربه عمــه حربا عوانا لبثت ثمانين عاما ، ثم حكمت الآلهة لحور بأحقيته فى ملك مصر •

واذ كانت الاسطورة تمثل النزاع الأبدى بين الخــير والشر وانتصار الخير فى نهاية المطاف ، فقــد كانت أحب

الأساطير الى قلوب المصريين وبخاصـــة عامتهم . وكانوا يمثلونها فى ٢١ أمشير فى غمـار الاحتفالات بموت أوزير وبعثه بمدينة أبيدوس ، واليهـا كان يحج سنويا الألوف لمشاهدة تمثيلية الاله الشهيد . ويعتبر الباحثون فى تاريخ المسرح أن هذه الأسطورة هى أقدم التمثيليات ، اذ سبقت مصر بها ـ وبغيرها ـ المسرح اليونانى بحوالى ألف وخمسمائة سـنة .

ومصر هى موطن القصة القصيرة وأذكر منها :

١ ـ كانت قصة سنوهى من القصص الشائعـة ، وتمتاز بجمال الحبكة وجزالة الأسلوب . وقد عاش صاحبها أيام الملكـين أمنمحعت الأول وسنوسرت الأول . وتقص مغامرات صاحبها، وتوفيقه فى أن يكون لنفسه مركزا ممتازا بين البدو . وقد تزوج ابنة شيخ قبيلة بدوية وأنجبت له أبناء أصبحوا زعماء قومهم ، الا أنه مابرح يشتاق الى مصر ويصبو للعودة الى ربوعها ويضنيه الشوق لترطيب حلقه بماء النيل . ثم بلغه عطف الملك عليه فعاد الى مصر ، وأمر بتعيينه أمينا من أمناء القصر ، وأصدر أمره الى كبير مهندسيه لاقـامة قبره .

٢ ـ وفى الملاح الغريق يحكى صاحبها الأهوال التى جابهتـه عندما تحطمت سفينته ، لكنـه سـبح الى جزيرة يسكنها ثعبان هائل يمتاز بطيبة القلب . فتآلفا فترة الى أن حضرت سفينة أخرى عادت بالملاح الى مصر بعد أن زوده الثعبان بالهدايا . وتعتبر هذه القصة مصدر قصـة الأمير زين الزمان وملك الجان فى مجموعة ألف ليلة .

٣ ـ تعالج قصة الأخوين موضوع المرأة الخائنة التى تسعى لاغراء أخى زوجها ، لكن يأبى الأخ أن يدنس فراش أخيه • فكان أن حرضت الزوجة زوجها علـى أخيه البرىء ليقتله مدعية أنه راودها عن نفسها فصدق الزوج ، وهم بقتل أخيه لولا أنه فر من أمامه وعاونه الهالشمس وأنقذه • وأمكن الأخ توضيح حقيقة الأمر لأخيه وتوكيدا لروايتـه بتر عضـو التذكير • ويقتنع الأخ الزوج ويقتل زوجتـه الخائنة • ولقد دخل جوهر هذه القصة فى الأدب العبرانى •

٤ ـ وثمة قصة تحكى مهارة أحـد القادة المصريين فى الاستيلاء عـلى مدينـة يافا فى ابان عصر الملك تحوتمس الثالث • اذ لجأ القائد « تحوتى » الى الحيلة للاستيلاء على المدينة بعد أن عجز عن اقتحامهـا عنوة • فأدخل فى روع حاكم المدينـة أنه يود مقابلته للاتفاق عـلى شروط تسليم الحامية المصرية ودعاه لزيارته فى معسكره • واندفع الأمير لتلبيـة الدعوة مسيراً بطمعـه فى الاستيلاء عـلى نفائس المصريين • الا أن القائد الماكر وفق فى احكام وثاق الحاكم • ثم أحضر عددا كبيرا من الزكائب وضع فيها مائتى جندى من أشجع جنوده بأسلحتهم واختار خمسمائة جندى لحملها ، وأغرى سائق عربة الأمير بأن يقرر لحامية المدينة بأن هذه الزكائب تحتوى على هدايا ثمينة لعائلة الأمير وحاشيته • فلما فتحت أبواب المدينة لاستقبالها وثب الجنود المصريون فى غفلة من الحامية وانقضوا عليها واستولوا على المدينة •

وظاهر تأثير هذه القصة على قصة حصار طروادة وقصة على بابا والأربعين حرامى ٠

وأقدم الترانيم المعروفة هى ترنيمة الملك أوناس (ونيس) آخر ملوك الأسرة الخامسة ٠ وتبدأ باظهار قوة الملك وقدرته على افتراس أعدائه والتهام سحرهم وابتلاع أرواحهم ٠ وينظر الى الملك فى الترنيمة على أنه رسول « جب » اله الأرض الى أوزير رب الخصوبة ليحيطه علما بشئون الحصاد ٠ ثم تتحدث عن هيبته وترحيب الآلهة به ٠

ومن الترانيم الطريفة ، تلك التى كان ينشدها المصريون لأوزير وتقول « المجد لك ياملك الملوك ، ياسيد السادة ، يا أمير الأمراء ، يا صاحب الأرضين ، يا حاكم البلاد بأسرها ٠ امنحنى المجد فى السماء واعطنى القوة على الأرض » ٠

وكان للنيل (حابى) قداسة خاصة ٠ وقد حفظت لنا الآثار ترنيمة أنشدت أثناء الاحتفال بفيضانه تقول « تباركت يا نيل ، يامن تنبثق من الأرض لتغذى مصر ٠ طبيعتك خفية ، النيل يروى المراعى ويزود الماشية بالغذاء، ويروى المناطق البور النائية ٠٠٠ ذلك لأن ماءه ينزل من السماء ٠ انه رب الأسماك ، يدفع طيور الماء صوب الجنوب ينبت الشعير ويبدع القمح٠ واذا ما تباطأ سيره هلك الناس واذا ماقسا ، ينذب الكبار والصغار ٠٠ فان فاض شاع

الفرح وابتهجت القلوب ، ويمد الناس بالقوة •• وهو لا يفرق بين شخص وآخر •• وليس ثمة حواجز تحول دون جريانه » •

والى جانب الأناشيد ذات الطابع الدينى ، خلفت لنا مصر القديمة الكثير من الأشعار الغنائية : أغانى العمال ، قصائد فى مدح الملوك • ويفيض بعضها بأجمل المعانى وأحلاها • وأنوه هنا بأغنية عازف العود التى كتبت أيام الدولة الوسطى وكانت تغنى فى الولائم التى يقيمها أهل الميت عند قبره :

« تنقضى الأجيال وتحل مكانها أخرى • ان الذين شيدوا لأنفسهم قصورا اندرست ، أين أماكنها الآن ؟ لقد تهدمت جدرانها فأصبحت والعدم سواء • ولم يأت أحد من هناك فيقص علينا ما أصبحوا عليه ويطلعنا على مصائرهم كيما تطمئن قلوبنا وترتاح نفوسنا حتى نسارع نحن بدورنا الى المكان الذى ذهبوا اليه • جدير بك أن تمتع نفسك وتنسى ذلك اليوم الذى لا بد وأن يأتى لتدفن ، وارم بكل الأحزان وراء ظهرك ، واتبع رغبات قلبك مادمت حيا ، واغرق فى ملذاتك ولا تكتئب ولا تحمل نفسك الهموم ، واقض اليوم سعيدا ولا تشغل نفسك بشىء • ان أحدا لن يأخذ معه الى القبر أمواله ، ولن يعود للحياة من يوارى الثرى » •

وتفيض أغانى الغزل المصرية القديمة رقة وعذوبة ، ونلمس فيها حبا تشيع فى جباته العفة والحنان • ومبالغة

فى الاعزاز ينادى الحبيب على حبيبته بلفظ الأخت كما تلقبه ب « أخى » اعلانا عن أن الحب قد ربط بين القلبين فأصبح المحبان من دم مشترك • ويبث كل منهما لصاحبه الشوق المبرح للقاء ويصف اللوعة التى يلاقيها من بعاده•

ولا تزال الحكم والنصائح من أحب ألوان الأدب الى نفوس جنسنا المصرى • فلا يوجد شعب كالمصريين يغرم بترديد الأمثال والحكم والمواعظ التى لا شك فى كونها حصيلة تجاربه فى ابان معترك تاريخه العريق الحافل بالأحداث والمحن • غالبا ما تصاغ على لسان أب يمحض النصح لابنه ويرشده سواء السبيل • وتعتبر نصائح الوزير بتاح حتب أشهر ما وصل الينا من أدب المواعظ عند أجدادنا العظام ، وفيها يحذر ابنه من الغرور والتعالى بسبب العلم ويهيب به أن يستشير الجاهل مثلما يستشير العالم اذ لا نهاية للعلم ، والحكمة نادرة وقد يعثر عليها فى حوزه أقل طبقات الخدم ، ثم يناشده اتباع الحق فانه مثل الطريق السوى أمام الضال والانحراف عنه يقود الى التهلكة • ويوصيه باحترام الرئيس مهما كان أصله ، وأن يتعفف عن السعى لمعرفة شيء عن ماضيه عندما كان مغمورا، وأن لا يتعالى عليه بسبب ماضى أيامه • ويحتم عليه معاملة أصحاب الشكاوى بالحسنى ، فان الاصغاء للشكوى يغمر قلوب الناس بالفرح• ثم يحذره من الوقوع فى غواية النساء ، لأن الافراط فى الملذات يجانب الحكمة ، ولهذا يحثه على الزواج •

ومن النصائح التى اهتم بها الباحثون نصائح أمنؤوبى ٠
وهناك اجماع بين العلماء فى كافة أنحاء العالم على أن جزءا من سفر الأمثال (من الاصحاح ٢٢ آية ١٧ حتى اصحاح ٢٤ آية ٢٢ منقول نقلا حرفيا من بردية أمنؤوبى) ٠ كما أن أجزاء كثيرة من حكم هذه البردية قد اقتبسه العبرانيون فى مواضع كثيرة من التوراة فى غير سفر الأمثال ٠

وسنعود للكلام عن أمنؤوبى فى الفصل الخاص بتراث مصر الخلقى ٠

الفصل السادس

أنماط الفن المصري القديم

١ ــ طابع الفن المصرى

يقرر و.م. بترى العـالم المصرولوجى الكبير (١) أن طبيعة البلد هى التى تشكل فنها وأخلاق سكانها على السواء، وان تطبيق المقاييس الفنية لبلد على بلد آخر فيه افتيات كبير على الحقيقة . ولن نحيط علما بعقلية الفنان الا ان درسنا تلك الخصائص الأدبيـة التى اتخذتها الأمـة التى ينتسب اليها مثلا أعلى للحياة .

ويستتبع هذا الرأى أن يؤخذ فى الاعتبـــار عند

(١) صفحات ١ و ٢ و ٧
Petrie: Arts and Crafts of Ancient Egypt

الحكم على الفن المصرى وتقدير منجزاته عناصر مثل : علاقته بالأرض وصلته بالشعب واتصاله بالأحاسيس التى يرغب الفنان فى اضفائها على عمله الفنى ليستثير المشاهد ومدى صدق هذه الأحاسيس • فان ثمة عوامل جغرافية تسير طبائع السكان وتتحكم فيها ، وتؤثر بدورها على ذهن الفنان وعلى عمله بالتالى :

١ ـ صرامة المناظر الطبيعية المصرية ، حيث لا تتغير الفصول تغيرا يذكر •

٢ ـ المنحدرات الصخرية العالية ، وتصيبها عوامل التعرية باستمرار بالحز القطع •

٣ ـ أشعة الشمس المتوهجة على مدار السنة •

٤ ـ صفاء الجو تماما •

٥ ـ التباين الهائل فى المشاهد والمناظر ، أى بين الفيضان والتشريق ، الخضرة والجدب ، الحياة الميسرة فى الأرض العامرة وقفر الصحراء ••• الخ •

أعنى أن الفنان المصرى قد ألفى نفسه محاطا بقوى الطبيعة بجلالها وجبروتها وضراوتها وتناقضاتها • فلابدع وأن يتطلب المصرى من المنجزات الفنية أن تكفل عنصرى الدوام والاحتمالية • فالخلود غايته من عمله ، ويجب أن تبقى العمائر التى يقيمها والتماثيل التى تنحت له قائمة أبدا الآبدين ، وأن لا يصيب اسمه تبديل أو تحوير ليبعث على صورته فى الدنيا •

فالمعابد التى أقامها المصرى والصلوات التى توجه بها للآلهة ، انما هى تعبير عن رغبته العارمة فى أن يحقق لنفسه ذلك الخلود الذى شاهده فى مظاهر الطبيعة حوله وهى تتسم بالثبات والاستقرار . وضمانا لاضفاء الخلود على عمله ، لا بد من توافر عنصر القوة والمنعة فى جميع منجزاته لكى تستطيع مبانيه وتماثيله أن تصمد للفحسة العاصفة الرملية وارتفاع النهر الغادر ، وسعير الشمس المحرقة : وهذه القوة يجب أن تتضمن الدوامية .

أما أن المصرى قدأحرز مراده ، فهذا مايتضح للعيان. فان أهراماته ومعابده وحصونه وتماثيله الهائلة لا تزال بعد انقضاء خمسة آلاف سنة قائمة تشهد على تفانيه فى عمله وايمانه برسالته ، وما انفكت تتحدى الزمن وعوامل الهدم والتخريب . ولقد سبق الفنان المصرى البشر جميعا فى تشييد العمائر ونحت التماثيل وفى الفنون ، وفى الفنون التخطيطية بصفة عامة (١) .

ولقد نشأ الفن المصرى فى أحضان الدين ، منله مثل الفنون فى البلاد الأخرى وفى جميع الأزمان . فكانت التماثيل فى المعابد المصرية تمثل الاله نفسه : فى خلوده وجلاله ، وتساميه ، وعزلته عن الناس . وقد حرص الفنان المصرى على اضفاء طابع الرزانة والوقار على صور الملك

---

(١) الفنون التخطيطيه : كالتصوير والزخرفه والكتابة

والأرباب ، وأن تتجلى عظمة المبانى فى بساطتها وضخامتها معا ٠

والى الدوافع الدينية ترجع اقامة التماثيل فى المقابر، وتماثل حقيقة أصحابها الى حد بعيد ٠ وكان احترام الموتى فرضا أساسيا عند المصريين ، وهذا معنى جهد الفنان فى اضفائه على عمله٠ واذا كان الفنان مقيدا فى نحت التماثيل وتشييد المعابد بنمط خاص ، فانه وجد فى زخرفة جدران المعبد والمقبرة ما يشبع رغبته فى عرض موهبتـه واظهار احساسه بجمال النسب وروعة الألوان ٠

وكان أسـاس زخرفة التماثيل فى المعـابد منـاظر الطقوس الدينية وصور الآلهة ٠ أما فى المقابر ؛ فقد أطلق الفنان لمهارته العنان ، فأخذ يصور عـلى جدرانها مشاهد دقيقة تفصيلية تتسم بالروعة لحياة أصحابها الدنيوية ٠ الا أن الفنان كان مقيـدا بهندسة البناء ، ممـا اضطره الى تقسيم حيطان المقبرة الى مجالات أفقيـة ، وأن يفصل بين المنظر والآخر بخط أفقى ٠ ولكن ثمة أوضاعا كان لا مناص للفنان من التزامها مثل رسم صورة الميت جالسا وأمامـه مائدة حافلة بأطعمة القرابين ، اذ بدونها قد يجوع الميت فى الحياة الآخرة ٠ ولا يزال المصريون المحدثون ــ مسلمين ومسيحيين ــ يخرجون لزيارة الأموات حاملين معهم أطايب المأكولات لتوزيعها على روح الميت ، عوضا عن رسمها فى مقبرته كما كان يفعل أجدادهم ٠

٢ ـ المنجزات الفنية

تعتبر مصر متحف العالم الفنى • اذ لم تخلف حضارة من الحضارات مثل ذلك الحشد الهائل من التحف الفنية المتعددة الأنواع والأشكال • وعندما يتكلم المرء عن مصر القديمة نطفر الىذهنه أهراماتها ومعابدها ومسلاتها السامقة وتماثيلها الرائعة ومصنوعاتها الدقيقة من الخشب والمعادن بأنواعها والأحجار الكريمة ••• الخ •

وما من زائر لمتاحف مصر وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا وغيرها الا وينتشى اعجابا من روعة المنجزات الفنية المصرية • حتى لقد أصبح ثمة اعتقاد جازم بأن الفن كان عماد حياة المصريين ودعامتها ، وأن موارد الشعب المصرى قد كرست لابداع تلك الروائع الفنية ، وأن المصريين ـ كما يقرر العالم الكبير أدولف ارمان (١) ـ جنس فنان مذ ة يعتبر أستاذ العالم فى تطويع الأحجار والمعادن والأخشاب للابداع الفنى •

والفن نتاج محض للعبقرية المصرية • فان الفنان المصرى لم يقتبس من المنجزات الفنية لأمة أخرى على غرار ما حدث من اقتباس فنانى الأمم بعضهم من بعض ، ذلك لأن الفنان المصرى لم يسبقه سابق •

ولقد كانت اليونان تحبو فى طفولتها وقتما كانت

---

(١) صفحة ٢٤٠ وما بعدها من المجلدين الاول والثانى
The Historian's History of the World

مصر تقود العالم فى طريق الحضارة منذ عهد بعيد • ولبث العالم أجيالا طوالا يتطلع معجبا الى ثرائها وعظمتها وقوتها ، ويسلم لها بالصدارة فى الحكمة والفن • فلابدع وأن تقتبس اليونان من الفن المصرى • وهـذا مانتبينه فى الأعمـــدة الدورية التى نجد أصولها فى معبـد الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثـة وبانى أول هرم ـ أى الهـرم المدرج فى سقارة ـ وأول بناء حجرى فى الوجود •

وهذا الهرم هو مركز مجموعة معمارية كبيرة تشغل مساحة ٢٥١ ألف متر مربع ، ويحيط بها سور ارتفاعــه عشرة أمتار • والى ايمحوتب المهندس العبقرى يعزى بنــاء هذا الهرم ، ولم يكن مهندسا فحسب بل كان طبيبا وفلكيا• وقد وحده اليونانيون مع اله الطب اسكلبيوس • وتعتبر فكرة ايمحوتب فى تشييد الهرم المدرج خطوة هـامة نحو تشييد المقابر الملكية على شكل هرمى • فلم يمض الا أقل من قرن واحد حتى رأينا المهندسين المصريين يقيمون الهرم الأكبر فى الجيزة؛ لكن قبل أن يبنى هذا الهرم الكامل كانت قد صممت على الأقل أربع مقابر هرمية الشكل ، بالاضافة الى هرم الملك زوسر المدرج •

وتبلغ مساحة قاعدة الهرم الأكبر ثلاثة عشر فدانا • وهو مشيد من الأحجار الجيرية ، ويبلغ عددها ٠٠٠ر٣٠٠ر٢ كتلة حجرية تزن كل منها ٥ر٢ طن فى المتوسط تقريبا ويصل وزن بعضها الى خمسةعشر طنا • وطول ضلع الهرم يكاد أن يكون عند القاعدة ٥٧ر٢٣٠ مترا وارتفاعه عندما

كان كاملا أكثر من ١٥٠ مترا ، واتجاه كل جانب من جوانب الهرم يكاد أن يكون مضبوطا على خطوط الشمال والجنوب والشرق والغرب • ويذكر هيرودوت أن مائة ألف عامل ظلوا يعملون فى بناء الهرم عشرين عاما • وهذا ما يحمل الأستاذ توينبى على اعتبار عصر الأسرة الرابعة ذروة الحضارة المصرية ، مستدلا على صحة رأيه بقوة التنظيم الادارى التى أمكنها حشد موارد البلاد البشرية والمادية فى كفاية نادرة المثال لتشييد هرمى الملكين خوفو وخفرع بالذات •

وعقب طرد الهكسوس من مصر تعاظم نشاط حركة البنـاء ، ثم ضعفت فى عهـد رمسيس الثالث من الأسرة العشرين •

ولقد حرص المهندسون المصريون على ربط عمائرهم بالفن وبالذوق السليم • وتم ذلك بفضل التزامهم الوضوح واستقامة الاتجاهات والابتعـاد عن التعقيدات المعمارية • وحسبهم فخـرا أنهم خلفوا مجمـوعة الكـرنك التى تتضمن نحو عشرين عمارة دينية ، وتعتبر أعظم ماخلفته البشرية على الاطلاق من العمائر الدينية ، وحسبى الاشارة الى بهو الأساطين الهائل وقد جمع فيه المهندسون المصريون بين الروعة والجلال والجمال والضخامة المفرطة على السواء • وقد رغب أولئك المهندسون فى أن يتركوا فى وسطه ممرا واسعا تعبره المواكب الدينية والهيئات الرسمية فى معبد آمون وخلال أعيـاده ، فكان أن شـيدوا صفين هائلين من

أساطين حجرية شاهقة يتجاوز ارتفاع كل منها العشرين مترا ويبلغ قطره أكثر من عشرة أمتار ويشبه تاجه هيئة زهور البردى المتفتحة ، ويبلغ من سعة هذا التاج أنه يتسع لوقوف عشرات من الناس فوقه .

ولقد سبق أن أشرنا في الفصل الرابع من هذه الدراسة الى الثورة الدينية والفكرية التى حمل لواءها الملك اخناتون . وطبيعى أن تتأثر مدارس الفن بهذه الثورة بدعوتها لالتزام الحق والالتصاق بالطبيعة فى بساطة متناهية . فكان أن تحررت مدرسة النحت من الأساليب القديمة وعمدت الى تمثيل الأشخاص وفق هيئتهم الطبيعية دون افتعال . واهتم المثالون اهتماما بالغا بدراسة الوجوه والأحاسيس ، وهذا ما يطالعنا فى تماثيل الملك والملكة ، اذ تتبدى فيها الروحانية والرقة والوداعة . وأشهر مثالى هذا العصر : باك وأوتى وتحوتمس . ولا تقل مدارس التصوير عن مدارس النحت فى ولائها للواقعية التى اعتنقتها ديانة آتون ؛ فصورت الملك والملكة فى أوضاع طبيعية : أثناء الفرح والمرح والحزن ، وحين التعبد . وقد توسع فن التصوير فى اظهار وحدة المناظر واستغلال وحدة المكان ، وهذا ما لم يكن معهودا من قبل .

لكن الثورة الفنية الآتونية قد انتكست بعد القضاء على الثورة الدينية والفكرية التى رجا الملك من ورائها أن يجدد شباب الأمة المصرية ؛ مصداقا لرأى المؤرخ الكبير آرنولد

توينبى • فكان أن عاد الفن الى أوضاعه القديمة ، بل ان الأحداث التى حطت على مصر فى العصر الفرعونى المتأخر وما تلاه من فقدان مصر قوتها وازدهارها بل واستقلالها السياسى ، قد دفع الفن الى التقوقع والتشبث بالقديم ؛ حرصا على سلامة الذاتية المصرية التى يعض عليها المصريون بالنواجذ ، ولا يبغون عنها بديلا : فى كل آن •

ولا شبهة فى أن العالم كله يدين بالأسلوب المعمارى الحديث الى عبقرية المهندسين المصريين • فان طرز البناء المعقدة قد اختفت من ميدان البناء ، الا ما بقى من مخلفات الأسلاف مثل طراز البناء البيزنطى والهندى والقوطى والصينى والفارسى • فلقد أصبحت استقامة الخطوط وتحرى البساطة والبحث عن الفائدة العملية مع كفالة الروعة صفات تتطلبها المدنية الحديثة فى مبانيها •• وهذه لعمرى أسس الفن المصرى القديم • ولقد كانت تطالعنى يوميا أثناء اقامتى بموسكو ملحقا بالسفارة المصرية خلال أعوام ١٩٤٤/١٩٤٦ مقبرة لينين فكنت أعجب لطرازها الذى اقتبسه المهندس السوفييتى من هندسة هرم سقارة المدرج، ولم يطل الأمر بى حتى أطلعت على بحث كتبه هذا المهندس السوفييتى عن العمارة المصرية ، وفيه يشيد بعبقرية المهندسين المصريين ويعتبرهم رواد فن العمارة وأساتذته •

الفصـــل السابع

التراث الخُلقي المصري

١ ـ انبعاث الوازع الخلقى

ألهمت البيئة العقلية المصرية منذ زمن سحيق يرجع الى ماقبل الأسرات ، وجود ذات أسمى • فأخذ المصرى يكافح لادراكها • فكان أن هدته بصيرته الى أن ثمة فعلا صالحا محبوبا ، وآخر طالحا مكروها • ويعنى هذا أن الخلق الكريم يستند على نسامى الانسان الروحى وسلوكه فى علاقاته مع عائلته : زوجه وأبنائه ووالديه وأخوته وأخواته ، بالذات ؛ ويطالعنا ـ توكيدا لهذا الرأى ـ نص كتبه أحد نبلاء الصعيد على قبره خلال عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد يتباهى فيه بأعماله الحسنة ثم يقول « اننى لا أكذب اذ كنت محبوبا

من والدى وتثنى على والدتى ، ويحمد أخى أخـلاقى ، كما كنت لطيفا مع أختى » • وقد ورد نفس المعنى مسطرا على قبور نبلاء عصر الأهرام •

أعنى أن الورع البنوى كان أعظم الفضـائل التى يفخر بها الانسـان وقتذاك ؛ فكان الأبناء يعتزون بتشييد قبور والدهم الراحل : فالعناية بالقبور غاية الغايات عند المصرى القديم •

ومن رسوم المقابر التى خلفها أجدادنا منذ عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد يتضح سمو الحياة العائلية المصرية فى وقت كان معظم العالم يحيا فى غمار الهمجية تهيم شعوبه على وجوهها فى الفيافى والقفار والغابات ، ويقتل بعضهم بعضا ، ويئد الآباء البنات خشية املاق ، وتشيع التضحية البشرية سواء بذبح الآباء أم الأبناء التقاء لغضب الآلهة التى تسـعدها اراقة الدماء البشرية على مذابحها •

على حين كان المصرى ينعم بحيـاة رخيـة مستقرة مع زوجته وأبنـائه فى منزل خاص ، ويمارس عمله فى هدوء وسلام ، ويؤدى شعائره الدينية لآلهة وادعة كالبيئة النيلية المسالمة •

وهذه الحياة العائلية الوادعة بما تضمه بين ثناياها من عاطفة حنان أبوى واقبال على رعاية الأولاد وحمايتهم قد انبعثت عنها صفات: السخاء والامتنان والمحبة والرحمة والحنو الصادق • وبعبارة شاملة انبثق عنهـا السلوك الايثارى بجميع انواعه • وطبيعى أن يستثير العدوان على

الأطفال غضب الوالدين واندفاعهم لحمايتهم ، وهذا الغضب ـ كما يقول مكدوجال العالم النفسانى الكبير (١) ـ هو بذرة السخط الخلقى بأسره وعلى أساسه أرسيت دعائم العدالة والجانب الأعظم من القانون العام ، وعن هذه الصفات ؛ برز معنى المسئولية التى غدا لها سلطان حاسم على السلوك البشرى ٠

واذا كان السلوك الطيب قد انحصر فى العائله فى بداية الأمر ، فقد اتسع مداه قبل عصر الأهرام بوقت طويل الى أن شمل أمور الجماعة ٠ فأصبح الفرد يرى واجبا عليه أن يحسن معاملة من يتصل بهم من الناس وأن يجتنب الأضرار بأخوانه ٠ أعنى تجلى ما انطلق عليه «الوازع الخلقى» لأول مرة فى تاريخ الانسانية ٠ وقد تم بتأثير التطور الاجتماعى الذى اتخذ مجراه فى مصر قبل أى بلد آخر فى العالم بزمن طويل ، ولا شبهة فى أن الوازع الخلقى هو قوام الضمير ٠ وهكذا تصدق عبارة العالم الكبير جرين « ليس فى مكنة فرد أن يصنع لنفسه ضميرا ، فانه يفتقر الى مجتمع يقيمه له (٢) ٠ وتحفل النقوش التى خلفها عصر بناة الأهرام بنصوص يشهد أصحابها على أنفسهم بأنهم أحسنوا معاملة الناس وأنهم

---

(١) صفحة ٧٤

W. McDougal : An Introduction to Social Psychology

(٢) صفحة ٣٨٧

T.H. Green : Prolegomena to Ethics.

أجزلوا عطاء كل من قدم لهـــم خدمات وأن قبورهم لم تشيد غصـــبا أو قهــرا • ويقول أحد نبــلاء هذا العصر « أطعمت كل جائع فى ضيعتى وكسوت العريان وأعطيت المحتاج ماشـــية ، ولم أغتصب أمتعة أحد مما يدفعـــه للشكوى منى ، ولم أكذب قط لأننى كنت محبوبا من أبى مقربا الى والدتى » • فالمصرى القديم كان يفزعه عـذل الناس ويؤرقه دعاؤهم عليه ، ومصداقا لهذا الرأى ينادى طبيب الملك ساحورى «لم أرتكب وزرا ضد أى انسان»، ويقول أحد الكهنة على جدران مقبرته « لم أستخدم القوة ضد الناس » • وكتب أحد عامة الشـــعب على جدران مقبرته « يامن تمر أمام هذه المقبرة قدم الى روحى شيئا من القربان لأننى استحقه لحب الناس لى ، اذ لم أغتصب ممتلكات أحد وكنت محسنا للجميع » •

ومن خصـــائص الجنس المصرى المميزة ـ قديمـا وحديثا ـ سعيه الدائب لتتفق أفعـــاله مع أوامر الرب ونواهيه • الا أنه يرى أن المجتمع والآله يعينان أنمـــاط الوازع الخلقى وحدوده على أساس القـــاعدة « ما يحبه الناس ويرضى الرب عنه » أى ما يجمع بين ما هو صالح وعادل•واستخدم المصرى القـديم كلمة«نفر» (بضم النون وكسر الفاء) للتعبير عن الصالحوالجميل، كما كانت تستخدم للتعبير عن اللطافة والفال الحسن•وبالتالى؛كان لهذه الكلمة وعكسها « دجو » (أى الردىء والبغيض والحظ السيىء

والمحزن) جانب ذوقى وآخر خلقى ، هذا بينما كان لكلمة « معات » (الصدق ، الحق ، القسط) معنى أخلاقى أصبح دعامة الصرح الحضـــارى المصرى : المعنوى والخلقى . وقدس المصريون لفظ «معات» حتى أصبح ربا من الأرباب، واستخدموا نقيضا له كلمتين : جوريج (وتعنى الـكذب والبهتان) ويسفت (وتعنى المضرة والخطيئة) .

وآمن المجتمع المصرى بمسئولية الانسان عن عمله . فانه وان سلم بسلطان القضـــاء والقدر ، قد آمن بأنه لا يقيد ارادة الفرد الحرة . فان القـــدر يشكل مختلف احـداث الدنيا التى يعيش الانســـان ويعمل فى نطاق تأثيراتها ، لكن الحكمة الالهية قد منحت الانسان القدرة على كفاح تلك التأثيرات ومجابهتها والتغلب عليها بفضل عزيمته وصلابة ارادته .

وما نطلق عليه الضمير مركزه القلب « يب » وفق المعتقد المصرىالقديم ، وكان كذلك مركز العقل والرغبات وآمن المصرى بأن صـــوت القلب هو صـــوت الله . ومن الأمثلة المصرية القديمة « سعيد من يقـــوده قلبه فى طريق الفعل السليم » .

وكان المصرى الفديم شديد الحرص على أن نتيح له أعماله الطيبة حسن الأحدوثة ، وأن يخلف لذريته اســـما رنانا ، مؤمنا بأن الناس تذكر صـــاحبه أبد الآبدين ،

ويحظى بحياة مديدة . ومن السلوك الحميده ينبعث ما هو حسن وصواب ، وهــذا ماكان يدفع المصريين الى تلقين أولادهم منذ نعومة أظفــارهم المبادىء الخلقية والأمثال التى أبدعها السلف ، وترسم طريق مكارم الاخلاق .

وتتضمن متون الأهرام دليلا لاينقض عن أن المطالبة باحقــاق الحق وتمكين العدالة أعظم قوة وتأييدا من الملك نفســه . فان المصريين جميعــا سواء أمام « رع » الاله الأعظم . ويطالعنا نقش من الأسرة السادسة يقول « ان الملك بيبى لم يرتكب اثما » . ولا يستثنى الملك نفســه من المثول أمام محكمة الاله للتدليل على براءته .

٢ ـ السنن الخلقية

جابهت الشعب المصرى منذ آلاف الســنين المحن الثقال وعركته الأحداث ، ومن غمامها استقــامت دعائم الحكمة المصرية التى أشادت بها التوراة حتى لقد ذكرت أن موسى عليه السلام قد تعلم حكمة المصريين كلها . كذلك نوه بتساميها مفــكرو اليونان والرومان . ومن تجارب شعبنا العديدة فى حياته الطويلة الحافلة ، صاغ المصريون أمثلتهم المأثورة ونصائحهم ونكاتهم وقصصهم الرمزى ، وفيهــا أودعوا ســننهم الخلقيــة . وما برح المصريون يتداولونها جيلا بعد آخر ، ولا تزال معانيها قائمة وان

تغير رداؤها اللغوى • ذلك لأنها حصيلة البيئة المادية المستقرة الثابتة ، كما أنها نتاج التطور الاجتماعى الذى يشكل أنماط الشعب المصرى : الخلقية والاجتماعية والأدبية •• الخ ، وهذه الأنماط هى التى تضع المصريين فى تلك المنزلة الخاصة بين شعوب العالم •

وتزودنا نصائح بتاح حوتب وتعاليمه بأقدم صياغة للسلوك القويم • وكان رئيسا لوزراء عدة ملوك آخرهم الملك « ايسيسى » من الأسرة الخامسة (القرن السابع والعشرين قبل الميلاد) وتقاعد بعد أن جاوز عمره المائة عام • ويعلى هذا السياسى المحنك من شأن الفطرة السليمة ويقدر العقل تقديرا خاصا ، ويعتبر الامتثال للنصح خير صفة يتحلى بها الشباب وفى هذا يقول « الادراك من يمن حظ الانسان ، ولاشىء يعادل طاعة الابن لاقوال أبيه • واذا امتثل الابن لتوجيهات الأب فلن يخيب له عمل ، ومن يتجاهل أقوال أبيه غبى لأنه لا يفرق بين الحكمة والجهل والنافع والضار » •

وتفصح هذه الأقوال وغيرها عن حقيقة لاتمارى وهى أن السلوك الخلقى قد غدا قبل حلول القرن السابع والعشرين قبل الميلاد (أى منذ أكثر من ٤٧٠٠ سنة) قضية مقررة فأصبحت سننا تحتذى وتنتقل من السلف الى الخلف • ويولى بتاح حوتب مسألة التوفيق فى عالم الدنيا عناية خاصة حتى لتشغل ثلث تعاليمه البالغة

ثلاثا وأربعين فقرة ومنها ما يتصـــل بآداب المائدة التى يحضرها رجل خطير المركز فيقول « نناول ما يضعه أمامك ولا نتطلع الى ما أمامــه ، وأخفض عينيك الا أن وجــه الحديث اليك ، ولا تتكلم الا ان أذن لك بالكلام ، واضحك عندما يضحك » ويرسم هذا الحكيم خطوطا تتسم بالدهاء لمعاملة المرءوس لرئيسه تذكرنا بمبادىء الكاتب السياسى الايطالى ماكيافيللى الذى يوصى باصطناع الصبر فى معاملة الرؤساء ومداهنتهم ليرضوا عنه فينال أسمى المناصب ٠

وتشتغل المسئوليات العائلية موضعا هاما فى وصايا بتاح حوتب لولده فيقول : « ان أصبحت رجلا موفقـا تكون لنفسك أسرة ٠ وأحب زوجتك : اطعمها واكســها وزودها بالعطور ، وادخل السرور على قلبها طوال حياتك ، فانها حقل خصب لسيدها » ٠ واذا كان هذا السـياسى المصرى المحنك يعلى من شأن المركز الاجتماعى والثراء ، فانه يرى أن لا يتسبب تحقيق ذلك فى تدمير العـلاقات العائلية ٠ ويقترن هذا التقدير الفائق للارتباطات العائلية وأسرة المرء الخاصة باحترام الارتباطات العائلية فى الأسر الأخرى ٠ اذ يلفت الوزير نظر والده الى قداسة البيوت الأخرى ويحثه على احترام حياة الناس الخاصة فيحذره من الاتصال بامرأة غريبة ، ذلك لأن آلاف الرجال قد أضاعتهم نزوة عابرة كالحلم (وكان الموت عقاب الخيانة الزوجية فى مصر القديمة) ٠

ونشيع فكرة اقرار الحق وتمكين العدالة في جميع أقوال هذا السياسي المصري الحكيم ٠ فانه القائل : « ان شغلت منصبا اداريا وأصبحت تصدر الأوامر للجمهور ، فعليك أن تراجع السوابق الحسنة حتى تخلو أوامرك من الأخطاء ، وكم هي عظيمة العدالة لأن شريعتها خالدة ولم تخلع عن سلطانها قط لأنها مستمدة من الاله ، وقد يزول الثراء لكن تدم العدالة » ٠ واذا كان اعتناق هذه التعاليم يتطلب توافر أخلاق قوية ، فانه ينادي بالتمسك بالخلق القويم ٠

ولقد فهم مفكرو مصر بعد عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد اصطلاح « معات » (أي العدالة ، القصاص ، الحق) على هدى التجارب التي تجتازها بلادهم والمشكلات التي تجابهها والمحن التي تمر بها ٠ اذ بات لكلمة « معات » معنى امتد من العلاقات الانسانية الخاصة الى الجوانب القومية ؛ فأصبح يعبر عن التشكيل القومي وعن نظام الأمة الوطني وعن ترتيب الكون تحت سيطرة اله الشمس ٠

وبالأحرى : أصبح لكلمة «معات» مدلول قومي وكوني فلم يعد يقتصر على معاني « العدالة والصدق والقسط — وهي المعاني التي كان يمارسها الفرد ابان عصر بناه الأهرام ٠ بل لقد غدا لها مدلول اجتماعي واقعي : اجتماعي وحكومي ، وتطورت الى نظام عالمي ٠ فكان القاضي في المحاكم المصرية يعلق على صدره صورة من اللازورد لربة

العدالة « معات » ، فاذا حكم لأحد الخصمين ادار اليه الرمز مشيرا الى أن الربة هى التى حكمت لصالحه . وأصبحت هذه الربة هى التى تقاوم الفوضى والظلم والخداع .

ومن ثم انبعث لأول مرة فى التاريخ حشد من القيم السامية عالمية الطابع ، تتجمع حول حاكم مؤله هو اله الشمس ، وجعل المثقفون المصريون من « معات » ابنته . وبفضل الايمان بدور « معات » تطورت حياة المصريين الفكرية وقادتهم الى الاهتداء الى الوحدانية قبل أى شعب فى العالم ، ولم يهتد اليها العبرانيون الا بعد اقامتهم بين ظهرانى المصريين وخضوعهم لهم فى فلسطين وانطوائهم تحت لواء الثقافة المصرية . واننا لنجد فى سفر «ملاخى» (الاصحاح الرابع ـ آية ٢) الاشارة الصريحة الى اله الشمس المصرى الذى كان يرمز اليه بقرص مجنح « ولكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر (القسط = معات) والشفاء فى أجنحتها » .

وما الفكرة المصرية عن النظام الخلقى والادارى ـ وهذا مدلول اصطلاح معات ـ الا حصيلة تطور اجتماعى وحكومى استمر بضعة آلاف من السنين فى كنف حياة قومية منظمة تنظيما عاليا وفى ظل تكافل اجتماعى وطنى سبقت مصر بتحقيقه مجتمعات العالم الأخرى بآلاف السنين ، وما اهتدى أنبياء العبرانيين الى هذه السنن الخلقية

الا بعد الأسر البابلى ، ولقد سبقت مصر بابل فى هذا المجال بألف سنة على الأقل (١) ٠

٣ ـ تأثير مصر على منحى البشرية الخلقى

شرع المصريون فى الاستحواذ على الساحل السورى قبل أن يدخل العبرانيون فلسطين بألف سنة ٠ فان الجيوش المصرية قد دخلت فلسطين قبل عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد ، وفى خلال القرن السادس عشر قبل الميلاد خضع للسيادة المصرية غرب آسيا حتى الفرات ٠ وكانت فلسطين جزءا من الامبراطورية المصرية طوال ألفى سنة بعد استيطان اليهود لها ٠ أعنى أن اليهود قد غمرتهم أشعة الحضارة المصرية سواء أثناء اقامتهم بمصر أو استيطانهم فلسطين فى ظل الحكم المصرى ، وشاركوا هناك الكنعانيين الذين استوطنوا فلسطين قبل وصول العبرانيين (أى اليهود) بزمن طويل ، وسبقوهم فى الانتهال من معين الثقافة المصرية ٠ وقد اقتبس هؤلاء العبرانيون لغة الكنعانيين فاصبحت هى اللغة العبرية التى استعان بها مؤلفو التوراة فى تحريرها ، وان كان لا ينكر تأثرهم بالحضارة البابلية نظرا لموقع فلسطين الجغرافى وللفترة الطويلة التى أمضوها أسرى فى بابل ٠ هذا ولا يخفى أن

(١) صفحة ١٤٧ وما بعدها
Brestead: Dawn of Conscience

اليهود لم ينتظموا فى تشكيل قومى الا حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد لكنه تحطم قبل انقضاء مائة عام على وجوده ولم يعد الا فى ظل ظروف اصطنعتها الصهيونية العالمية .

ووردت أول اشارة الى العبرانيين فى رسائل تل العمارنة فى عهد الملك اخناتون حوالى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد، وذكرت أنهم قوم من البدو الجفاة . ولقد حملوا معهم من الصحراء عادات همجية مثل ذبح بكر الأبناء قربانا لاله القبيلة ، وكان ـ حسبما ورد فى التوراة ـ غولا نجح يعقوب فى الامساك به واستعطفه ليطلق سراحه قبل بزوغ الفجر . وأطلق هذا الرب الغول على يعقوب اسم «اسرائيل» ولفظ « ئيل » سومرى الأصل وكان يطلق على الاله المحلى وانتقل الى فلسطين ثم دخل الأسماء اليهودية أثناء النفى بالذات وانتقل منها الى الأسماء الاوربية .

وفى أثناء مقامهم بمصر تحضر العبرانيون واقتبسوا الكثير من العادات المصرية واعتنقوا طائفة ضخمة من الآراء الدينية (١) . ولا ننسى أن موسى اسم مصرى قح . وموسى عليه السلام هو الذى أجبر اليهود على الالتزام بعادة مصرية بحتة هى عادة الختان ، مارسها المصريون قبل عهد الأسرات بزمن بعيد جدا . كما أنه لا شك فى تأثير العقيدة الآتونية

---

(١) ترجى مراجعة كتابنا « مشكلة اليهودية العالمية » ـ عدد ٢٤١ من المكتبة الثقافية .

على متجهات اليهود الفكرية · ونجد فى العهد القديم تأثيرات التفكير المصرى بارزة سواء من ناحية اقتباس القصص أو الأمثال · ويطالعنا فى هذا الصدد أن نصائح الحكيم المصرى آمنـــؤوبى (الجزء السادس فقرات ١ ـ ١٢) قد وردت بالكامل فى الآيات ٥ ـ ٨ من الاصحاح السابع عشر من سفر أرميا · كذلك نجد المشابهة واضحة بين المزمور الاول ونصائح الحكيم آمنؤوبى · أما المزمور ١٠٤ فانه بوشـــك أن يكون ترجمة حرفية لأنشودة أخناتون فى تمجيد آتون ·

وما برح سفر الأمثال الذى تنسبه التوراة الى سليمان عليه السلام يؤثر فى أنماط السلوك الخلقى المســـيحى · ولقد تبين من دراسة العلماء لهذا السفر أن اصـــحاحات بأسرها قد نقلت نقلا عن حكم آمنؤوبى المصرى · كما نجد تأثير هذا الحكيم واضحا فى ســـــفر أيوب وفى القانون العبرانى وفى سفر صموئيل · أعنى أن حكم آمنؤوبى هى مصدر الكثير من الآراء والأمثال والسنن الخلقية الواردة فى الواردة · ولم بستطع العـــلماء اليهـــود انكار هـــذه المشابهـــــة فكان أن ادعوا أن الحكيم المصرى قد نقل عن التوراة مع أن آمنؤوبى قد ظهر قبل جمع التوراة بآلاف السنين · ولا يتسع المجال فى هذه الدراسة لعقد مقارنة وحسبى أن أحيل القارىء الكريم الى مؤلف العالم الكبير جيمس برستد عن « فجر الضمير » ·

وصفوة القول ، فان أنماط السلوك الخلقى التى بشر

بها اليهود لم تنحدر الى البشرية من التوراة ، بل لقد نبعت من وادى النيل • لأن تجارب العبرانيين الاجتماعية فى فلسطين قد بدأت فى وقت متأخر جدا عن التجارب الاجتماعية المصرية التى أسفرت بحكم التطور الاجتماعى عن اعتناق المجتمع المصرى هذه السنن الخلقية قبلما يعرفها حكماء بنى اسرائيل بآلاف السنين • ولم تكن التوراة - من الناحية العلمية البحتة - الا مجرد موصل للمنحى الخلقى المصرى الذى شرع يتكون فى محيط التجارب الاجتماعية المصرية متأثرا بانجازات الحضارة المصرية فى جميع ميادين الفكر : المادية والمعنوية ، وان كان علماء الاسرائيليات يسعون جادين لطمس معالم ينابيع الحكمة التى استقت منها التوراة منحاها التفكيرى الخلقى بدعوى أنها أوحيت الى أنبياء بنى اسرائيل وأن الله جل ثناؤه قد اختصهم بها دون البشر جميعا وأن العالم بأسره قد عاش فى الجهالة والضلالة ، حتى ظهر اليهود على مسرح التاريخ العالمى •

الفصل الثامن

خاتمة المطاف

يصف الكاتب العظيم « رينان » مصر بأنها المنار الذى أضاء ظلمات العصور القديمة .

والحق ؛ مابرح العالم منذ آلاف السنين يسبح فى خضم ثقافى مصرى وينعم بثمار الفكر المصرى فى جميع ميادين الحياة : المادية والمعنوية .

ويتأكد هذا القول من استعراض عابر لحياة الفرد اليومية فى العالم المتحضر . اذ يتبين مدى ما أجدته مصر على الانسانية من مآثر . ذلك لأن الأصالة من أهم صفات الحضارة المصرية القديمة . فانها قد انبعثت بمصر وفيها نمت وتطورت وازدهرت نتيجة للتفاعل بين المصرى وبيئته

وكثمرة لروح الجهاد والكفاح المتأصلة فى الخلق المصرى ، ومحصلة دأبه على العمل المتواصل :

فالزراعة كشف مصرى ، ورغيف الخبز ابتكار مصرى ٠

وفى مصر بدأت الصناعات العظيمة وفى مقدمتها صناعة بناء السفن ، فالمصرى أول من اعتلى ظهر البحار ٠ ونشأت بمصر صناعات النجارة والحدادة والقيشانى والأوانى الزجاجية والحجرية والسلال والحبال والحصر والطوب والفخار والأدوات الزراعية ٠ وكان المصريون أول من استغل المناجم المحاجر ، وأول من غزل ونسج ٠

والمنزل ومتطلباته اختراع مصرى ، وكذلك الأدوات المنزلية الاساسية كالفراش والخوان ، ودورة المياه ، والكراسى ٠٠ الخ ٠

وبمصر ظهرت أول مدرسة وأول جامعة ٠

وبمصر انبثقت بدايات العلوم والمعارف والفنون على تنوعها وتباينها وفى مقدمتها الطب والهندسة والكيمياء ٠

واخترع المصريون الكتابة وصنعوا الورق وابتكروا التقويم الشمسى ٠

وتطور الفن وازدهر بمصر ، ولا تزال أعمال الحضارة المصرية فى البناء والنحت والتصوير تذهل كل من يراها ٠

والحكومة بوظائفها ورسالتها اختراع مصرى ، وبها نشأ أول تنظيم دقيق لاشتراكية الدولة .

وفى مصر تكونت الصفوة المثقفة التى تتعامل مع الفكر .

والمصريون أول من قدس العلاقات الزوجية على أساس الزواج من سيدة واحدة بأسرة النيل العظيم (النيل ـ الأرض ـ النبت) . وأعلى المجتمع المصرى مكانة المرأة : والدة وزوجة وابنة وأختا ، وساوى فى المحبة والمعاملة بين الذكر والأنثى . وكان الأبناء ـ بنين وبنات ـ موضع حدب الآباء والأمهات ورعايتهم .

وفى مصر بزغ فجر الضمير الانسانى وانبلج صبح المعنويات وتبوأت مكارم الأخلاق أعلى مكانة .

والمصريون أول من أدرك وجود قوة خفية تجازى المحسن وتعاقب المسىء . وما انفكوا أتقى شعوب الأرض وأشدهم ورعا سواء فى عصرهم الفرعونى أم المسيحى أم الاسلامى .

وهدتهم بيئة بلادهم الى عقيدة البعث والخلود فى عالم آخر . اذ كان النيل يفيض سنويا فتحيا الأرض وتعود الحياة اليها بعد موات ، فاستقر فى ذهنهم أن الحياة تتجدد دواما وأن الموت مرحلة انتقال لحياة أعظم وأخلد .

والحضارة ـ مصداقا لما قررناه من قبل ـ حصيلة التوافر على العمل الصالح وتوجيه الجهود الانسانية توجيها متمرا والافادة من البيئة الى أقصى الحدود · ومن ثم ؛ فان القول : بأن الحضارة المصرية هى نتاج البيئة افتيات على الواقع · ذلك لأن النيل يمر ببلاد عديدة لكن لم تنشأ بها حضارة أصيلة ، بل لم تساهم فى الحضارة الانسانية بقسط قليل أو كثير فيما عدا وادى النيل الأدنى : مصر · واذا ما ولينا وجهنا شطر البلاد التى تماثل بلادنا جغرافيا من ناحية توافر البيئة النهرية أو الوقوع على نفس خط العرض ، لا نجد بلدا شارك فى الركب الحضارى العالمى بأى نصيب عدا بلاد ما بين النهرين والسند ووادى النهر الأصفر ، أما الجانب الأعظم من البيئات الأخرى المشابهة مثل أودية أنهار الأردن وكلورادو والمسيسبى والأمازون ··· الخ فلم تقدم للحضارة الانسانية أى جهد : قليل أو كثير ·

فالمنجزات الحضارية المصرية حصيلة تفاعل بين الانسان المصرى وبيئته · أو هى بتعبير الأستاذ توينبى ثمرة استجابة المصرى لتحدى بيئته ·· فان ظروف وطننا تفرض عليه الوحدة لأن أساس الحياة فى أرضه واحدة ومصدرها واحد والفائدة التى يجنيها السكان من تنظيم شئون الرى والزراعة مشتركة · كما يجابهون خطرا مشتركا يتمثل فى تقلبات مياه النيل · أعنى أن الطبيعة

قد قضت بأن تكون مصر وطنا واحدا لا يمكن تجزئتـــه بحال ، ويتطلب تنظيم المجهود الاجتماعى قيام حـــكومة مركزية قوية فيه ٠

ويختلف مجتمع النهر — أى الزراعة — عن مجتمع البداوة — أى الرعى — اختلافا بينا ٠ فبينما تلزم البيئة النهرية سكانها بالتجمع والاستقرار والتعاون ، بما يعنيه ذلك من ادراك معنى الوطن والأمة والدولة ، تدفع بيئة البداوة الراعى للانتقال من مكان الى آخر سعيا وراء الكلأ ، بما يعنيه ذلك من التفرق والتشتت وانصراف ولاء الفرد للقبيلة أو الأسرة وحدها : أعنى ينتفى معنى الوطن والأمة والدولة من عقلية البدو ٠

فالبيئة النهرية أنتجت الفلاحين والصناع ، وأنتجت البيئة البدوية خير التجار ٠

وينبنى على ما تقدم اختلاف النظرة الى المثل العليا :

فالحكم العادل هو مثـــل المصرى الأعلى ٠٠ ففى ظله ينمى ملكاته المادية والمعنوية ٠

والانطلاق بلا حدود ، أو على الأقل الحياة فى ظل أدنى ما يمكن من النظم ، يمثل غاية الغايات فى المجتمع البدوى ٠

أما المصرى فلا يمـــكن أن يعيش الا فى ظل حكومة

مستقرة يقدسـها ويرتضى التنازل عن جـانب كبير من الشخصية مادامت اقامتها تحقق ركن العـدالة الركين ٠ فلا بدع وأن تصبح تهمة الظلم أبشـع ما يتهم به مصرى وتؤثر فى نفسيته تأثيرا بليغا ٠

بينما يأنف البدوى من الخضوع الى النظام الحكومة الا ان فرض عليه فرضا ٠ وعندئذ يتقبله على مضـض ٠ ويحفل تاريخ الانسانية بثورات البدو وانتفاضاتهم ضد النظم التى تفرض عليهم ٠

واستجابة المصرى لدواعى النظام والتكافل ، سجية فطرته عليها الطبيعة ، فان شذ عنها اختلت أموره وضعف شأن بلاده وعمتها الفوضى وافترستها المجاعة ٠

وبعبارة أوضح ؛ فان مشكلة المجتمع البدوى سياسية ثقافية فى صميها وأساسها : تتمثـل فى اخضاع أفراد المجتمع للاستقرار والنظام لتتالف الأمة والدولة ٠

بينما أن مشـكلة المجتمع النهرى والمصرى بالذات اقتصادية أولا وأخيرا ٠ اذن تمكن فى حسن اسـتغلال موارد البلاد لتتوام مع زيادة السكان مع ما يقتضيه ذلك من تعبئة الموارد والجهـود البشرية لكفالة هذه الغـاية المرتجاة ٠

وتنعم مصر بطبيعة : قوية ، بسيطة رائعة ، مشرقة ، مستقرة ، رتيبة ، سافرة ، رخية ، خيرة ٠ فكان أن أضفت

على الخلق المصرى الهدوء والسماحة والاستقرار ، واشاعت فى نفسية المصريين البشر والابتهاج ، ودفعتهم للاستمساك بالتقاليد الموروثة . كما أوحت اليهم معنى الروعة والجلال والخلود والدوام .

ولا شبهة فى أن المصريين قد احتفظوا بصفاتهم الجسمية وحافظوا على صلات الدم والسلالة التى تربطهم بأجدادهم الأقدمين عبر تاريخهم العريق . وقد تم هذا بفضل موقع البلاد الجغرافى الفريد الذى أحالها الى جزيرة . وأضفى هذا الموقع صفات فذة على سكانها فأصبح لهم دور خاص داخل الاطار العام للحضارة العالمية . فان مصر لا تجد ضيرا من الاقبال على انتهال المعارف من البلاد الاخرى . ولكن مع الحفاظ على شخصيتها التى ما برحت تتميز بها .

وحسبى القول أن الثقافة اليونانية قد ازدهرت بمصر وتتماذوت فى بلادها الأصلية . وان اللاهوت المسيحى قد صبغ بمصر . وانها غدت بعد اسلاميا واستعرابها قلب الاسلام النابض وفكره وحصن العروبة وذهنها الوقاد . وما أن اتصلت مصر بأوروبا حتى شرعت تستوعب ثقافتها . وعاد المبعوثون المصريون ممن كانوا بالأمس مجرد فلاحين أميين عادوا الى بلادهم أطباء ومهندسين واداريين ليعيدوا تنظيم بلادهم وفق النظم الحضارية

الحديثة وليؤهلوا بلادهم لتصل ما انقطع من رسالتها الحضارية فى المجتمع الانسانى ٠

وأن التحدى الذى تجابهه بلادنا فى الوقت الحاضر متمثلا فى العدوان الامبريالى والصهيونى سيدفع المصريين لابراز استجابة مبدعة تؤهلهم لأن يشاركوا بنصيب موفور فى تأدية رسالة مصر الحضارية الخالدة : رسالة لم تنقطع على مر العصور وستواصل سيرها أبد الآبدين ودهر الداهرين ٠

فهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٤٦٧١/١٩٧١

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسى ١١١٧ شارع كورنيش النيل — القاهرة — ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٥ / ٧١٠٥٨ تلغرافياً : ناشرو

الادارة العامة للتوزيع ، ١٧ شارع مصر النيل — القاهرة — ج ع م.
تليفون : ٤٥٥٨٩ / ٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القاهرة

٣٦ شارع شريف	ت : ٤٠٠١٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	ت ، ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى	ت ٤٦٣٨٣	٢٢ شارع الجمهورية	ت ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان	ت : ٢١١٨٧	الباب الأحمر بالحسين	ت ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥ الجيزة : ١ ميدان الجيزة ت : ٨٩٨٣١١
دمنهور : شارع عبد السلام الشاذلى ٢٦٠٥ المنيا : شارع ابن خصيب ت : ٤٤٥٤
طنطا : ميدان الساعة ٢٥٩٤ اسيوط : شارع الجمهورية ت. ٢٠٣٢
المحلة الكبرى : ميدان المحطة ٤٢٧٧ اسوان : السوق السياحى ت : ٢٩٣٠
المنصورة : أول شارع الثورة ٣٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع — بيروت — شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة
العراق : الشركة القومية للتوزيع — بغداد — ميدان التحرير — عمارة تاجة

وكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب — عمان
ليبيا : محمود عارف الشويهدى — طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس — جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ — ٤٤ الشارع الملكى — الاحباس — الدار البيضاء
هولندا : مكتبة بريل — ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
فى خدمة القارئ العربى